المصباح في مكاشفة بعث الأرواح

ويليه

شرح الحجب والأستار في مقامات أهل الأنوار والأسرار

ويليه

لوامع التوحيد

ويليه

مسالك التوحيد

كلها تأليف

الشيخ أبي محمد روزبهان البقلي الشيرازي

المتوفى ٦٠٦هـ

ضبطها وصححها وعلق عليها

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

تقديم

بسم الله الموجود والقديم والباقي والمخالف للحوادث والقائم بنفسه فلا يحتاج إلى محل ولا مخصص، والواحد الذي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والحمدلله المتصف بالقدرة والإرادة المتعلقتان بجميع الممكنات والعلم المتعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات والحياة وهي لا تتعلق بشيء، والسمع والبصر المتعلقان بجميع الموجودات، والكلام الذي ليس بحرف ولا صوت ويتعلق بجميع ما يتعلق به العلم من المتعلقات.

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين الواجب في حقهم: الصدق والأمانة والفطانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه للخلق ويستحيل في حقهم الكذب والخيانة والبلادة وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه للخلق، ويجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام ما هو من الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية.

وبعد ففي إطار معرفة علم التوحيد دليلاً وبرهاناً وشهوداً وعياناً ومعرفة ماهية الروح وأسرار سيرها في مقامات ومنازل عالمي الملكوت والجبروت وفي إطار نشر كتب ومخطوطات التراث الإسلامي وخصوصاً المتعلقة منها بعلم التصوف الإسلامي التي نقوم بتحقيقها وتصحيحها وتنقيحها والتعليق عليها خدمة لركني الإيمان والإحسان الطريقة والحقيقة.

نقدم للقراء الكرام أربعة كتب للعارف بالله تعالى الشيخ المحقق رزوبهان البقلي الشيرازي **الأول**: كتاب (سير الأرواح) أو (المصباح في مكاشفة بعث الأرواح) أو (رسالة الروح) يتكلم فيه عن الحقائق الربانية الكامنة في الروح الإنساني وعما قاله العلماء من متكلمين وفلاسفة وصوفية حكماء في ماهيته، وعن سير هذا الروح في مقامات المكاشفين والعارفين والموحدين والمحبين، وغير ذلك من لطائف ودقائق وأسرار إلهية.

والثاني: كتاب (الإغانة) أو (شرح الحجب والأستار في مقامات أهل الأنوار والأسرار) تحدث فيه كما يقول المؤلف عن: معاني الحجب التي بين الله تعالى وبين عباده في مسير المقامات، وسير الحالات، وكشوف المغايبات، وبروز أنوار الصفات، ليعرف العارفون مصارع الخطرات وورود الخيالات ولطائف المكريات.

والثالث: كتاب (لوامع التوحيد) والتوحيد كما يقول المؤلف هو أقصى العلوم ومنتهى المعلوم وله بداية، وليس له نهاية لأن حقيقته صفة الموحد ولا غاية له من جميع الوجوه. ويضيف المؤلف قائلاً: «أما بداية التوحيد فلها مقدمات وهي على نوعين: الأول هو المقامات والثاني هو الحالات. . . والمقامات مراكب القلوب تسير بها درجات المكاشفات والحالات رواحل الأرواح تبلغ بها إلى وطنات المشاهدات.

والرابع: كتاب (مسالك التوحيد) شرح فيه مؤلفه كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله متحدثاً عما تضمنته من معرفة توحيد الذات الإلهية ومعرفة توحيد الصفات الإلهية ومعرفة توحيد الأفعال الإلهية، كما تحدث عما تضمنته هذه الكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من عقائد سمية كعذاب القبر والميزان والصراط والجنة والنار.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن كتب التصوّف الإسلامي تساعد المُريد على الإطّلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 99]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، الشريعة والطريقة والحقيقة، المُلْك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء». وقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبَّدنا الله به على لسان نبيّه ﷺ

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: 3-4] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69] لننال السعادة الحقيقة المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22-23].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله الذي أخرج أرواح العارفين من كتم العدم، وسيّرهم في ميدان القدم، وألبسهم حُلَل العناية، وتوّجهم بتاج الكفاية، ونوّر لهم مشرق العيان، وفتح لهم خزاين البيان، وأراهم جلال وجهه من روزنة البقا، وأصفاهم بصرف الصفا. وصلّى على سيّدنا محمّد خير الأنبياء، وعلى آله وصحبه الأخيار الأتقياء.

أما بعد فإن بعض إخواني سألني أن أذكر شيئاً من بعث الأرواح، فذكرت قدر ما تهيأ لي، وما فتح الله على قلبي في المكاشفة من نعته وصفته، وما أصبت من ذلك، فهو من هداية الله وإلهامه وإرشاده، وما أخطأت، فهو من حديث النفس، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك، وما أشرت إليه فهو طراز علم الحقيقة وزوايد نوادر المكاشفة.

فأقول، وبالله تعالى أستعين، لما طلع جلّ جلاله من مشرق القدم وتجلى بعلمه للعدم، فلم ير شيئاً غير نفسه. فتعجّب بجماله، وتقاصى صفاته من صفاته، كوّن أحبابه حتّى استمتعوا بوصاله وفرحوا ببقائه، فأراد خلق أرواح أنبيائه وأوليائه كما قال - عزّ اسمه - «**كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف**»[1] فغرف من بحر الكاف والنون غرفة، فصبّ في قدر القدرة واستوقد تحته نار المحبة، فتلهبت وألقت زَبد الحدوثية فصار صافيًا يضيء بنفسه. فأسرجه من نور نوره كما قال - عزّ اسمه - ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35]. فجعل قرار ذلك الضياء في أنوار الأزلية وصفاء السرمدية.

فربّ بربوبيته ومهّد لعبوديته، فرمى بين فضاء عظمته، ومطر عليه من بحر كبريائه، فصيّره معجونات من أفانين كرامته. ثمّ خمّر بعد ذلك وقت صباح سنائه. ثمّ خلقه بخلقه، وأنشأه بحسنه كما قال - صلوات الرحمن عليه - «**خلق الله تعالى آدم على صورته**»[2] ثمّ نفخ فيه من روحه فقام بإذنه، ونزّه الله بتنزيهه فقال ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] فطهرهُ في عين القدس، وألبسهُ حلل الأنس، وزينه بحلية الولاية، وكحله بكحل الصفاء، وتوّجه بتاج النهاية، وأركبه على نجيب الهداية، فأسرى به من بدو الحدثان إلى عين العيان. فأدخله في حجاب قرب القرب، وألطفه بلطائف الحبّ، وأراه نفسه بنفسه، واستأصله من أصله، ثمّ أبقاه بعد ذلك الفناء، وكلّمه بعزيز خطابه فقال: «من أنا» فقال: «أنت كما أثنيت على نفسك» ثمّ ذهب به من مقام المشاهدة إلى وطنات المكاشفة، فأبصره صفاته في المُلابسة حتى تحقق في المعرفة، واستحكم في المحبّة. ثمّ أخذه بيد الشفقة وأجلسه على فرش الزلفة وسقاه من شراب الألفة بكأس المنّة. فأسكره بحقيقة الجمال، وغيّبه في حُسن الوصال، فهاجت عليه صباء من بطنان البقاء، وسَلَبَتهُ من زوال الفناء، فوجد نفسه بين الذات والصفات فخرج من ضيق الرسومات.

ثمّ مضى من الدنو إلى السُّموّ فكشف عليه حقيقة الحقيقة فأوحى الله إليه

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، حديث رقم (5873) [5/ 2299] ورواه مسلم في صحيحه، في بابين أحدهما: باب النهي عن ضرب الوجه، حديث رقم (2612) [4/ 2017] ورواه غيرهما.

فقال: «من أنت» فقال: «أنت» فبدا من جبال العظمة سطوات القدوسية فأحاطت به غمرات الألوهية فانتسف من مقام الأحدية فانتشر في هواء الهوية ثمّ أحياه بحياته، وورّثه من التعظيم تذللا وتواضعًا عند كمال كماله، ثمّ أرسله إلى غربة الأزل، وحيّره في أوّل الأوّل. فصار هائمًا في بيداء الجبروت وتائهاً في أودية الرهبوت وعطشاناً في بحار الرحموت، فساقه بعد ذلك بسوط الغيرة وعظم القوّة في قفار السرمدية وفلوات الديمومية.

فلم يرَ ما طلب ولم يجد ما فقد فجن من الهجران ورنّ من فقد الوجدان فاستقبله بعد الإياس، وأطلقه من قيد القياس، فقال: «أين تريد» فقال: «عبد المريد» فطيَّره من قفص الرسوم الربانية إلى بساتين الفردانية، فرأى جمالاً في جمال وجلالاً في جلال وضياءً في ضياء وكمالاً في كمال، فقال: «يا سيّدي طلبتك في شرق البقاء وغرب الفناء، وسرت في الأوّل، ودرت في الآخر فما وجدتك إلا بعد الانقطاع منك إليك» قال: «لن تراني إلا في عين المحو وتمكين الصحو».

ثمّ نظر جلّ جلاله إليه بعين الجمع، فصار جوهراً لا يتغير بورود اللطف ومرور العنف، فأداره في فلك العزّة ونزل عليه نجوم القدرة من سموات القيومية، فطاش في دايرة الربوبية من سبحات الألوهية فرأى من كائنات القوّة طوارقات القدرة، ثمّ فتح الله عليه أبواب خزاين علوم الغيب، وأخرجه من ظلمات الريب، وأدخله في كتاب علم الإحاطة، وكشف عن لوح محفوظ الصمدية فرأى بياناً في عيان وعياناً في بيان فقرأ في أوّل سطر المسطور في الرق المنشور من النظم المنثور ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: 26-27] فوجد بحرًا من نور تجري من كاف كان، فسأل عن ذلك فقال - عزّ وجلّ: «هذه مقامات عين الحياة من شرب منها شربة أفلح من سكرات الممرات. ثمّ سمع أصوات قطرات الإلهام أنزل من بحر الصفات العظام، التقط جواهر الرموز من تيّار الكنوز، ثمّ سار في الإرادة، ولم ير حدّ النهاية، وتقلب في جنان العناية التي لا يدخل تحت الرّواية. فشرق أنوار من أفق الذات. وأضاءت مرآة الصفات فقال: «ما هذا يا ربّ» قال: «التفات عين بلا أين» ثمّ بانت لمعات الأسرار سامعات لحركات الأضمار برزت من صبح لا يزال وطرازات الإجلال، فقال «يا مولائي ما هذه»، فقال «سمعٌ بلا علّةٍ وصفة بلا شبهة».

ثمّ رأى غلبلت قهره وقوّة سلطانه. فسأل عن ذلك فقال «ما هاتان الصفتان إلاّ قدميّ ومنها جاز إليّ» ثمّ رأى آلاء في نعماء وأقداراً في إعطاء، فاستخبر عن ذلك فقال: «يداي باسطتان من عطائي لديّ» ثمّ رأى بقاءً وحكمة وسيرَ قضائه وقدره فقال «ما هذا يا ربّ؟» فقال: «هذه إصبعي محكمة في مقدرتي» ثمّ رأى بقاء في بقاء وملكًا في ملك، واستفهم عن ذلك، فقال: «هذا وجهي الكريم»، ثمّ رأى أمواج بحار الأمر ونوادرات الأمر، فاستعلم عنها، فقال: «هذا إتياني على خلقي وسرّي في خلقي»، ثمّ رأى عجايب الكرم في قماطير المنن، وفنون النيل كأمثال السيل، ومائدة السعادة على خوان العناية، فقال: «يا ربّ ما هذا؟»، فقال: «هذا نزول من نزولي وحلول من حلولي».

فلمّا استقرّ في التمكين، وفاز من اضطراب التلوين، نطق لسان سرّه بحقيقة التمجيد وخصائص التمجيد. فنظر إلى سماء التفريد، ورأى هلال التوحيد، واستنار بنور التحقيق، ونجا من غلبات التعويق. وكان متلاشياً في فناء الفناء وموجوداً في بقاء البقاء، قال: «يا صاحب التقدير ما هذا؟» قال: «هذا مقام التوحيد» ثمّ نزل من سدرة العزّة إلى روضة المعرفة، ولقي زهرة الحكمة، وجلس على زرابيّ القربة، وسكن في حجر الوصلة، وشق شقائق الاشتياق، وطلب حقائق الاستغراق، ورام زوائد الإدراك، فخاطبه بسرّ سرّه فقال: «العجز من درك الأدراك ادراك[1]» ثمّ مضى من منهاج المطالبة إلى معراج المشاهدة، فطاب بخطاب الحبيب، وطار من جلال المحبوب.

فلما رأى ما رأى صار من حسنه عاشقاً ومن لطفه وامقاً، ومن قدره صامتاً، ومن بهاء صفاته ناطقاً، ومن فقده باكياً، ومن وجده ضاحكاً. فسقاه الله من نسيم العشق. وغيّبه في وادي الشوق، وجعله غواصاً في بحر العبرات، محكماً في سلاسل الجذبات. فوضعه في منجنيق الفراق، وألقاه في نار الأشواق، فأحرقت نار الفرقة جناح الهمّة، فأدركه فيض المحبّة فارتعه في رياض المودّة، وطيّبه بنسيم الألفة وخلّصه من درك المحنة، ثمّ أنزل عليه وبل الحبّ، وسيّره في جنان القرب، فلم يزل مسروراً بنرجس الشفقة، سكراناً من شراب الزلفة. ثمّ ظهر من شامخات الهيبة

(1) من كلامه الصديق الأكبر أورده السيوطي في شرح سنن النسائي، كتاب الطهارة، [1/ 103] وأورده القضاعي في فيض القدير، حرف السين، [6/ 181].

رايات الخشية. فسعى في ميادين الدهشة وسقط من صولة الغيرة. فسئم من الطوف وفرّ من قسورة الخوف، فأتى إليه أمان الرجاء، وخلصه من عظم العناء وادخله في بيت الصفاء، وآنسه بعروس البقاء.

فناداه مُنادياً وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: 97]، ثمّ رأى روضة الأمين تجري فيها أنهار اليقين. فشرب من نهر علم اليقين شربة، فتفكر في الآيات. وشرب من نهر عين اليقين شربة، فتذكر في المكاشفات. وشرب من نهر حقّ اليقين شربة، فتدبر في المعاينات. ثمّ دخل في جنّة السكينة. وجلس على شطّ نهر الطمأنينة، فشرب من رائق الإيمان، واطمأنّ بصفاء التبيان، كما قال - جلّ وعلا - ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: 106] ثمّ شرب من زلالِ الآيات، واطمأنّ في المتشابهات كما قال الخليل - عليه السلام - ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]، قال - جلّ جلاله - ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: 260] ثمّ شرب من سلسبيل الذكر. فاطمأنّ في حقيقة الذكر كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: 28].

ثمّ سكن في كعبة الأنس، واستأنس بحقيقة القدس، وشق شفّ الحيا واستبشر بحسن اللقا، ثمّ طاف بحضائر القرب وشمّ رياحين الحبّ، فوقاهُ الله من التبعيد وقاية الوليد، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]. ثمّ سار في مضيق القبض وسلب عهد الغشق من النقض، وتحيّر بين الوصل والفصل، ودرس عليه مسلك البقا واشتبه عليه طريق الفنا. ثم أدركه عروس الوقت، وأسكره بشراب البسط وكشف عن وجه البقا، وأخرجه من وهم الفنا.

ثمّ هام في دائرة الهوية، وغرق في مواهب السنية، كلما طلب الخروج من بحر الألوهية أغرقته لطمات القدوسية، فعجز من قوّة المنع وقال: «يا غياث المستغيثين ما هذا؟» قال - جلّ وعلا -: «هذا مقام الجمع» ثمّ لَزم باب القربة، وناح من الفرقة، ورام الدخول إلى حجرات الجمعية. فحجبه امتناع الصمدية، قال: «يا ربّ، ما هذه الوحشة» قال: «هذا مقام التفرقة» ثمّ ظهرت شمس الحقائق، واندهمت لمعات الطوارق، وأحاطت به أنوار العناية، فأخبرته فقال: «هذا مقام الحقيقة» ثمّ بان هلالُ الأسرار من وراء الأستار، وأشرفه على جولان الغيب وخلصه من خفقان الريب.

ثمّ نظر الله تعالى إليه بطرف الكبرياء، وإذا به في عين الفناء، ثمّ أفناه من الفناء. ثمّ أفنى الفناء من الفناء حتى لا يبقى غيره، كما قال - جلّ جلاله - ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: 26-27]. ثمّ أبقاه ببقاء البقاء، وأقامه مقام الصفاء، وأكرمه بكرامة اللقاء. فلم يزل باقياً، لا يدخل تحت الفناء كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68]. ثمّ أشرق بنور الذات منوّراً بصُبْحِ الصفات، ومنظوراً بعين النور، ومسروراً في بيت الحضور، لا مقطوعاً عن الوصول ولا ممنوعاً عن الحصول.

ثمّ غاب في مهمه[1] الغيبة عن صعقة الغيرة، ملهوفاً في سراب الحيرة من جلال بلا ناحية، مقيّداً بحبل الاستسلام، مذبوحاً بسيف الاصطلام، متلاشياً من عظم قدره، متفشياً من سبحات وجهه. ثمّ سقاه من شراب الوداد، أسكره بحقيقة المراد، سكراً بلا قرار وخمراً بلا خمّار. ثمّ ذهب به من مصرع المحو، وأنزله مكان الصحو، وعلمه تأويل المشكلات، وأراه عجائب المتشابهات. ثمّ أراه فنون المشاهدات في لباس المكاشفات. فصار متلوناً من حسن حُسنه، مستوحشاً من قرب قربه. ثمّ أمنه من نفسه بنفسه، وأراه وقاية سبقه، وزينه بزينة اليقين، وأجلسه على مسند التمكين، وأخرجه من اضطراب التلوين.

ثمّ أقامه على سرادق السلطنة، والتفت إليه بعين العظمة، فاستحيا منه به، وأراد أن لا يكون وجوده عند وجوده لأنه ليس من شرط الاتحاد إثبات الاثنين. فصار بين الحيا والخجلة مطروحاً وبسيف الجلال مجروحاً. ثمّ أقر عينه بنور المآب، وأسمعه عجائب أصوات الخطاب، وجلله بأردية الكرامة، ووضع على فرقه تاج الولاية، وأجلسه على كرسيّ المهابة، وفتح له صندوق الكفاية فيه أنوار العناية. فاختلط عليه سكر رؤية البسط حق الاختلاط، وشقّ نقاب الانبساط، وطلب أفراد الفردانية في لباس الربانية فتغيّب صفات الروحانية بحسن الظن في جلال الرحمانية.

ثمّ أشربه ترياق الصدق بكأس المحو، وأدخله في رياض الإخلاص، وسقاه من عيون الاختصاص. ثمّ صفاه بصفوة الصفاء، وأتحفه حُلة العطا. ثمّ وفقه

---

(1) المَهْمَه: المفازة البعيدة، والجمع المهامِه. والمهمه: الفلاة بعينها لا ماء بها ولا أنيس. (لسان العرب لابن منظور).

بالولاية، وخصّه بالعناية، وأعطاه راية الرعاية، وأكرمه بلطائف الكرامات، وأشرفه على حقائق المقامات، حتى صار أميراً بأمره، ومتصرفاً في ملكه بحكمه. كلما أراد شيئا يكون له كما قال تعالى وصفاته بين قول عيسى - عليه السلام - ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49] تعالى.

ثمّ شرح صدره بنوره، ووضع فيها مرآة فيها عجائب صُنعه، حتى رأى ذخاير غيبه بحقيقة عينه، كما قال حبيب الحبيب - صلوات الرحمن عليه -: «**اتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله**»[1]. ثمّ ألبسه خلعة الذكر، وأركبه على مركب الفكر، وسيّره في ميادين الاعتبار، وألزمه باب الاعتذار، فصار بالذكر مؤنسًا، وبالفكر مؤمنًا، وبالاعتبار موقنًا.

ثمّ أتاه مصباح الحكمة، وبيّن له غامضات الحقيقة. فعلم مكنونات علمه ولطائف غيبه. فصار ورق الآيات كما قال - جلّ ثناؤه - ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: 49] فلمّا عيّ عن الجولان في الأسرار، وصار ممتحناً بالاختبار، دخل في دار المراقبة وبث من لبث المخاطبة، وخاض في بحر الترصد وطار بأجنحة التودد. فسمع أصوات مزمار الصفات، وترنم من الاشتياق إلى الميقات. فهاج من التفات عين الوجود، وتواجد من وجدان الوجود. فصاح من جلوة المشاهدة، وصفق من المسامحة في المناظرة. فحال من الاختلاط أنوار الذات، وانشد أبياتاً من كشف الصفات. فوجد وَجداً من إظهار الجمال، وخرق ثوب العبودية من صدمة الربوبية في كمال الكمال، فرقص من حسن الوصال، وطاب وقته من طيب الجلال، فبكا من بعد بعدهِ في قرب قربه، وضحك من قرب قربه في بعد بعده.

* ثمّ نقل من مَورُود الحالات إلى منهل المقامات كما قال ربّ العالمين ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: 164] فوجد برد نسيم الرضا، وتمكن في جريان القضا. ثمّ استمسك بعروة التوكل، وخاضَ من عظم الجبروت في بحار

(1) رواه الترمذي في سننه، باب ومن سورة الحجر، حديث رقم (3127) [5/ 298] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط الكبير، الأوسط برقم (3254) [3/ 312] وبرقم (7843) [8/ 23] والكبير برقم (7497) [8/ 102] ورواه غيرهما.

التذلل. ثمّ حمل أثقال الصبر، وطار من أنواع النعمة بجناح الشكر. ثمّ لبس مرقع الفقر وحمل فنون الوقر. ثمّ نظر إلى قديم إنعامه، واستغنى بحقيقة إكرامه. ثمّ زهد بتنزّهه، واستأنس بتقربه، وتورع بالورع من الاشتغال بغيره. ثمّ ألبسهُ الله لباس التقوى، وأمرهُ باحتمال البلوى، ثمّ أعطاهُ مصباح التوبة، وأطلعهُ على خزائن المعرفة. ثمّ أجلسه الله تعالى في بحر القدس حتى سبّح الله تعالى وهلّله وحمّده وقدّسه وعبّده ونزّهه ألف عام.

* ثمّ خلق الله تعالى العقل، منوراً مشرقاً، فأرسلهُ إلى خدمته. فلمّا رآه سلم عليه وخدمه فقال: «من أنت» فقال: «أنا العقل الذي بي يخاطب، وبي يعطي جزيل الثواب، ويعاقب بالعذاب» فقال الروح: مرحباً وأهلاً بالمكرّم الذي اختارهُ الله تعالى على ما أوجدهُ من العدم، كما قال - جلّ وعزّ - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝١٢٨﴾ [طه: 128].

ثمّ خلق الله الفهم، مدركاً لدقائق الأحوال ومشرفاً على حقائق الأفعال، فأرسله إليه، وسلم عليه، وقال: «من أنت» قال: «أنا مُبيّن المشكلات ومفسّر الغامضات» فقال: «مرحباً بالمرشد، وأهلاً بالرشيد».

ثمّ خلق الله الوهم، مدرج الأشكال ومنبت الخيال، فأرسله إليه فلمّا رآهُ، سلّم عليه فقال: «من أنت» قال: «أنا الوهم الذي هو مرآة الأمثال، من نظر فيّ يرى حقيقة العلم والأعمال» فقال: «مرحباً وأهلاً بالوسيلة التي خلق للخليقة».

ثمّ خلق الله الضمير، مجرى الحكمة ودَرَجَ الفطنةِ. فأرسله إلى خدمته. فلمّا لقيه، سلّم عليه، قال: «من أنت» قال: «أنا مترصّد العلم ومترقّب المعلوم». ثمّ خلق الله الحسّ جاسوس العقل، وحاجب العلم. فأرسله إلى خدمته. فلمّا وجدهُ، «قال من أنت» قال: «أنا حارس الفهم والخيال ومحاسِب الوهم» فقال: «مرحباً بالمتفقّه، وأهلاً بالفقيه».

ثمّ خلق الله الخيال، لوح السطور، وورق المسطور. فأرسله إلى خدمته. فلمّا رآه، سلم عليه، فقال: «من أنت» قال: «أنا ضابط المكاشفات، وحافظ المتشابهات» فقال: «مرحباً بنساج المكشلات، وأهلاً بدفاتر الآيات».

ثمّ خلق الله القلب، مشرّقاً بكشف الأسرار، مزيناً بحلية الأحرار، محصوفاً بالحيا وموصوفاً بالوفا، مخلوقاً بالسخا، ومجبولاً باللطافة والطرافة، متوجاً بتاج الحلم، محبراً بوشي العلم، ملبساً بلباس العفو، معطوفاً بكرامة العطف مطيباً

بالأحوال، مسروراً بالجمال، مكرماً بمكارم الأخلاق، منوراً بنور الأشواق، مخصوصاً بالفكر، ومطهراً بصفا الذكر كما قال - تبارك أسمه - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]. فأرسله إلى الروح، فلمّا علم بإتيانه، استقبله فقال: «السلام على صفيّ الله، المصبوغ بصبغة الله». فقال: «من أنت» قال: «أنا مشرب اليقين ومحل الحنين». فقال: «مرحباً وأهلاً بمصباح الصفا، أسرج من نور البها، فأعطى القلب مقام الذكر بالانقطاع، ووهب العقل مقام التدبّر بالعطا، وأتحف الفهم مقام الاستنباط، وأتى الضمير مقام الإدراك، ونحل الخيال تدبير خط المكاشفات، واقطع الوهم تصوير العلم أو الحس طلب العلوم».

* فلمّا تمكن الروح بجند الله، وصار أميراً بأمر الله، فأوحى الله تعالى إليه: «يا روح، سِرْ في ظلمات قهري وولاية بلائي، كما سرت في جنان لطفي ورياض قدسي، لأنّه من لم يذق مرارة قهري لم يعلم حقيقة لطفي، والقهر صفةٌ من صفاتي، ومن عرفني باللطف ولم يعرفني بالقهر لم يعرفني حق المعرفة، ومن شرط محبتي الدخول في درك بلائي» وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142] وكما قال أحمد - عليه السلام -: البلا مؤكل بالأنبياء، ثمّ بالأولياء، ثمّ الأمثال، فالأمثال وكما قال عزّ وجلّ - في التوراة «يا موسى، من أحبني، ابتليتُه».

فقال الروح: «إلهي، وسيدي، أين ولاية قهرك؟» فكشف الله تعالى ظلمات بعضها فوق بعض. فرأى هاوية حواليها ينبت ألوان الشهوات، ويتفرّق فيها ألوان الهوى كما قال - عليه السلام -: «**حُفَت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»[1]، ولقي شيخاً سارقاً خادعاً متكئاً على أريكة الكبر ومَسند الحسد، وبين يديه طبق فيه أنواع الخبيثات من الشهوة والغضب والبخل والحقد والبغض والعداوة والشحناء وحب الجاه والمال والمحمدة والفترة والكسل والحمق والنسيان والخيلاء والفخر والشره والبطر واللمز والهمز والجُبن والجهل، وما لا يحصى ذكرها من المكاره كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53] يأكل كما يأكل البقر السمين أكلاً واسعاً ذريعاً، كلما نقص منها ازداد منها،

فخاطبه الروح فقال: «من أنت ومن أين أنت» فقال: «أنا من ولاية المخالفة،

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها. . ، حديث رقم (2822) [4/ 2174] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء حفت الجنة. . ، حديث رقم (2559) [4/ 693] ورواه غيرهما.

وأنا فرعون الضلالة» فأخرج الروح من جنب الغيب اليد البيضاء، فانهزم النفس من الروح. فصادفها منكوساً بعون الله تعالى فضربها بسوط الطمأنينة، وقيّدها بحبل الملامة، وأدخلها سجن العبودية، فألزمها باب الربوبية.

فلمّا صادف الروح النفس، رأى بعد ذلك في وادي الغي شيخاً مضلاً مفسداً، عليه حلة الكفر، وعلى رأسه عمامة الشرك، وفي وُسطها زنار النفاق، وبيده قفص الحيلة والمكر والخديعة، ويقرأ السحر من لوح القهر، فقال الروح: «من أنت، ومن أين أنت» قال: «أنا مخلوق من نار الغفلة وغواص في بحر اللعنة» كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]. فطعنه بحربة التلاوة، وقيّده بحبل الاستعاذة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 200]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 98]. فلما وجد الشيطان أسيراً، أسكنه في الحبس، وقرنه بالنفس فدعا الله تعالى فقال: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: 75] فأخرجه الله تعالى من درك البلاء، وخلصهُ من عظم العناء، ونصره على النفس والشيطان حتى أخرجهما معهُ، وصيّرهما محبوسين في ملازمته، وسلّطه عليهما كل وقت.

* فوفقه الله بعد ذلك في مقام الشكر، فحمد الله ألف عام شكراً لأفضاله وإنعامه. ثمّ خلق الله تعالى العرش من النور الساطع، فنظر إليه بعين التعظيم فاهتز وكاد أن ينتسف فأمسكه بلطفه، وأدخله تحت أمره، وأخرجه من العدم، كما علم في القدم، واستوى فعله مع علمه، كما قال - جلّ كبرياؤه - ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5] فجعل العرش مجال جولان الروح، ووضع فيه خزائن الفتوح، فأمر الله الروح بطوف العرش، فاغتسل بماء التقديس، ولبس احرام التسبيح، وتلقّف من الله تعالى التلبية، وقال: «لبيك اللهمّ، لبيك» فطاف حول العرش ألف عام، ثمّ سجد لله تعالى وقال: «إلهي، ما ذكرتك إلا عن الغفلة، وما عبدتك إلا عن فترة»، ثمّ خلق الله تعالى حضيرة القدس، وزينها بأنوار الأنس، فأرسل الروح إليها. فلما رآها، قام فيها، وقدّس الله تعالى ألف عام.

ثمّ خلق الله تعالى ألف حجاب من نور، وسبع مائة ألف حجاب من المسك الأذفر، وسبع مائة ألف حجاب من كافور، كل حجاب ما بين السموات والأرض، ثمّ خلق الله الكرسي من النور الخالص، ثمّ أمر الروح بالدخول في تلك الحجب، فدخل فيها، فرأى الله تعالى بين كل حجاب ملتبساً بلباس شتّى من جلال وجمال،

وضياء وبهاء، وما لا يحصى ذكرها، كما شاء كيف يشاء، كما قال رئيس العاشقين - عليه السلام -: «**إنّ الله تعالى يرى هيئة ذاته كيف شاء**»[1]، فوصل الروح إلى الكرسي، ورأى العرش والكرسي والحجاب مملوءة من الله تعالى، وهو باين منها، فقال: «يا ربّ، ما هذه النوادر والعجائب؟» فقال - جلّ جلاله: «هذا مقام المتشابهات في المكاشفات، ومن لم يرني بتلك الصفات، لن يستطيع أن يرى حقيقة الذات، ولم يعلم تأويل هذه إلا أنا ومن أحبّه»، كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] فلما رأى الروح ما رأى، جال حول الكرسي، ونزّه الله تعالى، وركعه وسجده ألف عام.

* ثمّ خلق الله اللوح والقلم. فقال: «اكتب أيها القلم ما له وما عليه» فجرى القلم ألف عام. فكتب ما كان وما يكون، فقال الله تعالى: «يا روح، انظر إلى مكنونات علمي، وعزّة كلامي»، فنظر الروح إلى اللوح المحفوظ، فرأى حروفها، كل حرف كجبل قاف، كلما ظهر منها شيء خفي فيها شيء، قال: «يا رب، ما هذا الخفا والبدا، وما هذا المكتوبات؟» فقال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: 39] ثمّ أجلسه الله تعالى بين العرش و الكرسي في خيمة من النور، حتى استأنس بملكوته، واقتبس شعلة من نور جبروته.

* ثمّ خلق الله حملة العرش، وهم العارفون، والملائكة الكرام البررة، وخلق الله اسرافيل وعزرائيل وميكائيل وجبرائيل - عليهم السلام، فاوحى الله تعالى إليهم وقال: «يا ملائكتي، امشوا إلى خدمة صفي المحبّة ورئيس المملكة» كما قال الله تعالى: «اسجدوا لآدم» فقالوا: «وهل في الملكوت خير منا» فتعجبوا، وتحيروا، فلما رأوه آية الله موصوفاً بصفات الله تعالى في بلاد الله طاروا، وطاشوا، وسجدوا من جماله وهيبته. فقال الله تعالى: «ارفعوا رؤوسكم، فرفعوا رؤوسهم، وقاموا بين يديه خجلين متشورين، قالوا بلسان حزين: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: 32] ثمّ سلموا عليه وخدموه. فقال الروح: «مرحباً وأهلاً بالكرام الذين اختارهم الله بالانقياد، والاستسلام» فاستأنسوا بخدمته واحترموا بحرمته. فقام الروح بين الملائكة بخدمة الله ألف عام في قيام واحد، وركع الف عام في ركوع واحد، وسجد ألف عام في سجود واحد. فتحيروا في شأنه وتعبّده، وأقرّ كلهم بأنه

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

رئيسهم، وخيرهم كما قال - عليه السلام -: «**المؤمن خير من الملائكة**»[1].

ثمّ خلق الله سدرة المنتهى من نور شعشعاني، وخلق الله تحتها جنة المأوى، كما قال - جل ثناؤه: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: 14-15]. فطار الروح مع الملائكة، وجلس على السدرة، وسبّح الله تعالى ألف عام، ثمّ دخل جنة المأوى، وأكل من ثمارها، وشرب من أنهارها، ورأى قصورها وخيامها، خدم بين يديه حُور الجنة، وغلمانها. ثم خلق الله تعالى ثمانية جنة، مملوة من النعيم المقيم، فطار فيها ألف عام، فذكر الله تعالى فقال: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح» ثم خلق الله تعالى سبع سموات محل دورانه. فنزل إلى السموات، وعبد الله تعالى ألف عام، ثم خلق الله الشمس والقمر والنجوم لأجل اعتباره، ثم خلق النار لتهدده، ووعيده. ثم خلق الله - تبارك وتعالى - الزمان والأيام، لقضا عبادته وصومه ونسكه.

ثم خلق الله الأرض، والجبال، والبحار، والأنهار، والسحاب، والرياح، والبهائم، والنبات، لتقلبه، وتصرفه وتدبّره في خلقه كما قال - عزّ وعلا -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾[آل عمران: 190]. ثم أراد الله خلق جسمه، وهيكله، حتى يحمله، لأنّ السموات والأرض والعرش والكرسي أبين لقوة المعرفة، وسلطنة التوحيد كما قال - جل جلاله -: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72]. فقبض من وجه الأرض قبضة، فخمرها للعبودية، وخلقها لجريان الربوبية، فخلق عينيه للاعتبار، وأذنيه للاستماع، واللسان للخطاب، ويديه للبطش، ورجله للمشي، اختصاصاً واكراماً. ثم ربى الجسد أربعين يوماً بيد الشفقة والرحمة كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] أربعين حتى تمّ فيه كمال القدرة.

ثم أنزل الله الروح من السماء إلى الأرض، وأمره بالدخول في الجسد، فرآه مصوراً بصورته ومُتهياً بهيئته، لكن رأى موضعاً ضيقاً فخشي منه. فقال الله - جل ثناؤه -: «ادخل، ولا تَخَف، إنك من الآمنين» فدخل بأمر الله كما قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29] فلما دخل رأى آيات العلوي في المكان السُفلي

---

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

من العرش، والكرسي، والحجاب، والملائكة، واللوح، والقلم، والجنة، والنار، والسموات، والأرض، والجبال، والقفار، والبحار، كما قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] ثم رأى جلالاً في جلال، وحجاباً في حجاب، وعلواً في سفل، وسفلاً في علو، وقرباً في بعد، وبعداً في قرب، وزماناً في مكان، ومكاناً في زمان فدخل فيها. فطلب الله تعالى في كل منزلة ومرحلة وما وجد فتحير بعد ذلك. فكشف الله حجاب الكبرياء وأراه نفسه. فسجد لله تعالى، وقال: «يا سيدي قد تحيرت فيك، وفي أمرك، ما هذه الولاية؟» فقال: «معدن العناية وحقيقة الكفاية، ومحل القرب والمشاهدة» كما قال - تبارك وتعالى -: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

* فتمكن بعد ذلك في حضرة الحضرة، وتصور في عالم الصورة. فأسكن الخيال في الدماغ والعقل والفهم والوهم والحسن والضمير في القلب، والقلب في الصدر، وسجن النفس بين جنبيه، وجعل الشيطان متحيراً مجروحاً مكنوساً بين اللحم والدم، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع، والعطش**»[1].

* فلمّا أضأت الصورة بضوء جمال الروح، تحرك، وقام بأمر الله، ونظر إلى ملكوت السموات والأرض، ونظر بعد ذلك إلى نفسه. فعلم، وعرف أنه مخلوق، وله خالق. فنزه الله تعالى، وقدسه وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، وسجد لله - تبارك و تعالى - شكراً وحمداً لإكرامه وإفضاله، وخلقه، وخُلقه. فبكت ملائكة السماء من اشتياقه، وسألوا الله أن يرفعه. فرفعه الله إلى السماء، وادخله جنته، وأجلسه على سرير الملك، وأسجد له ملائكة السماء، حتى مضى من الزمان ما شاء الله تعالى. ثم اختبره بالمعصية، حتى يتوب عليه بالمغفرة، ويريه مقام التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121]﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[طه: 121 -122]. فقال الله - تبارك وتعالى -: «أيها الممتحن أخرج من جنتي واهبط دار محنتي» فأنزله الله من السماء إلى الأرض وحيره، وأوحشه، ومنعه عن الوصول إليه، وتضرع وبكى مائتي سنة من فراقه وهجرانه. ثم تاب عليه بفضله

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء: «ذكره في الإحياء. قال العراقي متفق عليه دون عبارة [فضيقوا مجاريه بالجوع] فإنه مدرج من بعض الصوفية.

وغفرانه، وأراه مقام الأنابة، وألهمهُ حُسن العذر والتلاوة: «الذي رآني رآه في أول البداية»، كما قال جل جلاله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 37] ثم حبسه في دار الامتحان، حتى جرى عليه مكث الزمان، ونقله في كل يوم سبعين مرة من مقام إلى مقام، كما قال حبيب الرحمن - صلى الله عليه وسلم: «**إني لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**»[1] حتى وجد في الغربة ما رأى في القربة، واستوى بداية الروح في أول الفطرة مع نهايته في الصورة.

فلما تمت أفعاله، وكملت أحواله، جاء وقت الرجوع إلى منزله ومقره، وناداه الله تعالى فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ٢٨﴾ [الفجر: 27-28] فوصل الروح إلى جنان المشاهدة، ورفع الله صورته إلى فردوس المكاشفة، وطهرها بصرف الصفا، وألبسها قبا البقا، واختلط الروح بالصورة، والصورة بالروح، حتى صار كمصباح صافي زجاجه الزجاجة صافية. فدخل في أبديته، كما خرج من أزليته، منه بدا وإليه يعود.

* قد وصفنا سير الروح في مقامات المكاشفين، والعارفين، والموحدين، والمحبين، وما فتح الله لي من أصول مذهبهم، ومقصدهم، وحالاتهم، وكشفهم، وأسرارهم، وعلومهم، ومعرفتهم، بالحقائق والدقائق، ومعراجهم، ومناجاتهم، وما لا نهاية له الذي أخفى الله تعالى على قلوب الخلائق من بدوِّ خلقه إلى منتهى سيره في ملكوت رب العالمين، وما ذكرنا من أي شيء حرمه وجوهره، وإن الله تعالى أبهم علم ذلك، وقال - جل جلاله -: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85] أي من علم ربّي، وقال عبد الله بن بريدة: «لم يبلغ الانس والجن والملائكة والشياطين علم الروح الذي يعيش به الإنسان غير الله تعالى».

* واختلف العلماء في ماهية الروح.

فقال قوم: «إنَّ الروح هو الدم، ألا ترى أن من نُزف دمه مات؟».

وزعمت طائفة: «أن الروح هو استنشاق الهواء».

وقال قوم: «الروح نور من نور الله تعالى»، وتوهموا أنه من نور ذاته.

---

(1) رواه بلفظه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب الاستغفار في اليوم سبعين مرة، حديث رقم (367) [1/325].

وقال قوم: «حياة من حياة الله».

وقال قوم: «الأرواح مخلوقة وروح القدس من ذات الله تعالى».

وقوم قالوا: «الأرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخواص ليست بمخلوقة».

وقال قوم: «الأرواح قديمة لأنها لا تموت، ولا تعذب، ولا تبلى».

وقال قوم: «الأرواح تناسخ من جسم إلى جسم».

وقوم قالوا: «إن الروح خلق من نور».

وقال قوم: «الروح روحان، روح لاهوتية وروح ناسوتية».

وقال عامة المعتزلة والنجارية: «الروح عرض».

وهؤلاء كلهم قد غلطوا فيما ذهبوا إليه، ولم يوافق أكثرهم فيما ذهبوا إليه إلا الأنصاري، لأنهم تفكروا في كيفيته ما رفعه الله عنه من الكيفية ونزّهه عن احاطة العلم به، أو أن يصفه أحد إلا بما وصف الله تعالى به، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85].

* والذي عليه أهل الحق والإصابة، أن الأرواح كلها مخلوقة، وهي أمر من أمر الله، ليس بينها وبين الله سبب ولا نسبة غير أنها في ملكه وطوعه، وفي قبضته غير متناسخة، ولا يخرج عن جسم ويدخل في غيره.

أما مذهب الحكماء في ذلك قالوا: «إن الله تعالى خلق الأرواح من ستة أشياء، من جوهر النور، والطيب، والبقاء، والحياة، والعلم، والعلو، ألا ترى أنه ما دام في الجسد، كان الجسد نورانيًا، تبصر العينان، وتسمع الأذنان، ويكون طيبًا، وإذا خرج نتن الجسد. ويكون باقيًا، فإذا زايله الروح، صار فانيًا، ويكون حيًا، وبخروجه يصير ميتاً، ويكون عالماً، فإذا خرج منه الروح، لم يعلم شيئًا، ويكون الجسد علوياً لطيفاً، ما دام فيه الروح، فإذا خرج صار سفلياً كثيفاً» وقال ابن الريوندي «الروح جسم لطيف، أسكن البدن» والاختيار في هذا القول أنه جسم لطيف، يدل عليه قوله تعالى في صفة الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: 169-170] والارتزاق والفرح من صفات الأجسام والمراد بهذا أرواحهم لأن أجسامهم بليت في التراب. وكذلك ما روى: «**إن أرواح الشهداء تعلق**

بشجر الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش»[1] وهذا الفعل لا يأتي من العَرَض. وروى عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - أنه قال: «الروح إذا خرج من الإنسان مات الجسد وصار الروح صورة أخرى».

* أما الذي أشار إليه لسان أهل الحقائق في وصف الروح ما قال أبو بكر بن سعدان: «خلقت الروح من النور واسكنت ظلم الهياكل، فإذا قوى الروح جانس العقل، وتواترت الأنوار وأزالت عن الهياكل ظلمها، فصارت الهياكل روحانية بأنوار الروح والعقل. فانقادت ولزمت طريقتها ورجعت الأرواح إلى معدنها من الغيب تطالع مجاري الأقدار، وهي تطلع المجاري من الأقدار»، وهذه ترضى بموارد القضاء والقدر، وهذه من لطائف الأحوال.

وقال بعضهم: «خلق الأرواح من الأفراح، وهي تعلوا أبدًا إلى محل الفرح». قال الشيخ أبو نصر السرّاج - رحمة الله عليه -: «خلق الله تعالى روح آدم - عليه السلام - من الملكوت وجسمه من التراب». وقال الواسطي - رحمة الله عليه -: «تقادحت النعتان الجلال والجمال، فظهرت من بينهما الأرواح»، وقال أيضاً: «أنا ابن الأزل والأبد لأن أكون ابن الأزل والأبد أولى من أن أكون ابن الماء والطين». وقال أيضاً: «خلق الله تعالى الأرواح بين جلاله وجماله، فلولا أن الله تعالى سترها بالماء والطين لسجد لها كلما ظهر في الكونين». وقال الشبلي - رحمة الله تعالى عليه -: «بالله قامت الأرواح والأجساد والخطرات لا بذواتها». وقال الواسطي - رحمة الله عليه -: «الروح روحان، روح به حياة الخلق وروح به ضياء الخلق وهو الروح الذي قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52]. وقال أبو عبد الله النباحي: «إن العارف إذا وصل فكان فيه روحان روح لا يجري عليه التغير والتلوين».

* أما الذي أريتُ - والله أعلم - أنّ الروح سرّ مخفي عند الله تعالى، لا يطلع عليه أحد من خلقه إلا من أراد الله تعالى أن ينكشف له في المكاشفة من العارفين الربانييّن، إنّهم يرونه في صورة روحانية، ولكنّهم لا يعلمون حقيقة خلقته. والدليل على أنه بذلك الصفة حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - في المعراج قال: **«رأيت**

---

(1) روى نحوه الترمذي في سننه، باب ما جاء في ثواب الشهداء، حديث رقم (1641) [4/ 176] والطيالسي في مسنده، عن عبدالله بن مسعود، برقم (291) [1/ 38] وروى نحوه غيرهما.

آدم في السماء الدنيا، ورأيت عيسى ويحيى في السماء الثانية، ورأيت يوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة، وهٰرون في السماء الخامسة، ورأيت موسى في السماء السادسة، ورأيت إبراهيم في السماء السابعة»[1]، ولا يختلف إنهم ماتوا في الدنيا إلا عيسى، وأجسامهم قد بقيت في التراب وأرواحهم قد صعدت إلى ملكوت السماء.

ودليل آخر أن الروح صورة لطيفة إشارة النبي - صلّى الله عليه وسلم - في بدو الأرواح: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[2]، والتآلف والانكار لا يظهران إلا عن صورة. وهكذا من رأى النبي - عليه السلام - في المنام فقد رأى روح النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن الخيال والتمثيل يدخلان في رؤية الصورة ولا يدخلان في رؤية الروح كما قال - صلى الله عليه وسلم -: «من رآني فقد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل بي». وهذه إشارة لطيفة لأهل الحقائق وبراهين واضحة لأهل الدقائق.

مسألة - سأل سائل ما الدليل على أن الروح خلقت قبل العرش والكرسي والملك والملائكة؟ **الجواب** - وبالله التوفيق -: إنّ الموجودات والمخلوقات كلّها أجسام وأعراض. ولا يختلف أن الله تعالى خلق الارواح قبل الأجسام. وصحة ذلك قول النبي - عليه السلام -: «**خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام**»[3] وروي في الأخبار أن أوّل ما خلق الله تعالى نور محمّد - صلى الله عليه وسلم. وذلك إشارة إلى تقدّم روحه - عليه السلام - على الموجودات.

* واعلم - وفّقك الله لطريق الرشد - أنّ الله - تبارك وتعالى - خلق جوهر أرواح الإنسان بالتفاوت كتفاوتهم في الأجسام، فبعضهم كثيف غليظ، وبعضهم لين لطيف وبعضهم أسود، وبعضهم أحمر، وبعضهم أبيض، وكتفاوتهم في الأخلاق، فبعضهم رقيق رفيق سخي قريب، بعضهم فظ غليظ بخيل لئيم، وكتفاوتهم في

---

(1) هذا الحديث لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه البخاري في صحيحه، باب الأرواح، حديث رقم (3158) [3/ 1213] ورواه مسلم في صحيحه، باب الأرواح جنود. . ، حديث رقم (2638) [4/ 2031] ورواه غيرهما.

(3) روى نحوه ابن أبي شيبة في مصنفه، حديث رقم (35928) [7/ 265] وأورده العجلوني في كشف الخفاء ضمن حديث: «إن الله قدر المقادير» برقم (704) [1/ 265].

الحسّ والقبيح، وكتفاوتهم في الأصوات الطيبات والمنكرات. فبعضهم جعل من أنوار الملكوت وهي أرواح الأنبياء والعارفين والأولياء والمقرّبين، وأدخلهم في حجال جلاله، وتجلى لهم بنور جماله، وألبسهم لباس صفاته. كما قال الشيخ أبو نصر السرّاج - رحمه الله عليه -: «خلق الله - عزّ وجلّ - روح آدم - عليه السلام - من نور الملكوت» ولذلك اشتاق إلى جلاله وجماله ووصاله، وخلق أرواح المؤمنين روحانيّة جنانيّة، ولذلك اشتقوا إلى الجنّة، وجعل أرواح الغافلين هوائيّة فلذلك مالوا إلى الدنيا، وفيه غلط عظيم من توهم أنّ روحه كروح محمّد - عليه السلام، لأنّ روح النبي - عليه السلام - خلق جلاليّة قدسيّة، وما سواه من أرواح النبيّن والصديقين صافية ملكوتيّة، لأنّه أقرب الخلق إلى الله - تبارك وتعالى. وبقدر قربه إلى الله - سبحانه وتعالى - خصّ جوهر روحه بجميع المخلوقات، فكذلك أرواح العارفين والصديقين على العامّة.

* وأيضاً كما أن الأرواح بالتفاوت، وطينة أجسامهم بالتفاوت، فبعضهم أحسن من بعض، كما روى في أخبار داود - عليه السلام - أنّ الله تعالى قال: «يا داود، إنّي خلقت طينة أحبّائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيّي ومحمد صفيّي، وإنّي خلقتُ روح المشتاقين من نوري ورقمتها ونعمتها بجلالي». وينبغي أن تعلم أن مَنْ خصّه الله تعالى بالمعرفة والمحبّة القربة والمخاطبة والمشاهدة فقد خلق روحه من جمال وجلال وضياء لأنّه خلقهم لنفسه كما قال لموسى - عليه السلام -: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: 41]. ويجب أنّ من اصطفاه الله لنفسه أن يكون أحسن من كلّ شيء لأنّ الله تعالى لطيف، ولا يدرك وصاله إلا لطيف كما قال - عليه السلام -: «**إنّ الله جميل ويحبّ الجمال**»[1].

* واعلم يا أخي - رزّقك الله نور اليقين - أنّ للروح والقلب والعقل مشاهدات. فمشاهدة العقل كشف صفات القدرة من استتار الآيات كما قال الواسطي: «أضحكت الأشياء حتى العارفين بأفواه القدرة» ومشاهدة القلب إدراك نور اليقين كما قال بعضهم: «مشاهدة القلب اليقين». ومشاهدة الروح مشاهدة العيان كما وعد الله تعالى في الجنان، وأيضاً كما قال الشبلي - رحمة الله عليه -: «للعارفين

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم (91) [1/ 93] ورواه الطبراني في الكبير برقم (7822) [8/ 203] ورواه غيرهما.

مشاهدة الدنيا أكشف من مشاهدة الآخرة» وأكثر الخلق محجوبون من ذلك المقام حتى العبّاد والزهّاد والعلماء الكبار ويقولون: «لا يجوز رؤية الله في الدنيا»، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: 103]، وقد غلطوا في ذلك لأنّ الله تعالى ذكر أبصار الظاهر، وقد وافقنا في ذلك وما قلنا هي بأبصار الباطن ليس بأبصار الظاهر مع أن الله تعالى أراد بذلك ادراك الإحاطة، وليس في الدنيا والآخرة ادراكه وإحاطته فإنّه تعالى أجلّ وأعزّ من أن يدركه أو يحيط به أحد من خلقه، مع أن للعارفين مقاماً أكبر من ذلك المقام، فيرى العارف بذلك النور صفات الله تعالى في جميع الأشياء كما قال بعضهم: «ما نظرتُ شيئاً إلا ورأيتُ الله قبل ذلك الشيء»[1] وذلك إشارة عظيمة للعارفين في الرؤية، وهو غاية القصوى من مقام المكاشفين. ولا شكّ أنّ ذلك القوم لا يبلغون هذا المقام لأنّ لهم قلوب مشغولة بالدنيا وأبصارهم خاشعة زائغة عن العقبى، ومن كان بهذه الصفة فقد حرّم الله عليه الوصول إلى ذلك المقام. وأكثر الشطّاحين تاهوا وتحيروا في هذا البحر، منهم أبو يزيد البسطامي وذو النون المصري ويوسف بن الحسين الرازي والشبلي وأبو الحسين النوري والجنيد ومحمّد الجريري وسمنون والحسين بن منصور ويحيى بن معاذ الرازي وأبو مزاحم الشيرازي وأبو عبد الله محمّد بن خفيف حجة الله على خلقه وهشام بن عبدان وأبو بكر الطمستاني وجعفر الجذا وأبو الحسين بن هند القرشي وأمثالهم من المشايخ - رضي الله عنهم أجمعين. وقد انصرف مَن سواهم من ذلك البحر ولطماته لأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* وقال بعض المتصنعين المتأخرين إنّ الله تعالى يرى في الآخرة بالقلوب لا بالعيون لأنّ عين الظاهر لا يطيق رؤية الله تعالى لضعف نوره، والعين لا ترى شيئاً إلا في المكان والله تعالى منزّه عن المكان، وهذا مذهب المعتزلة. وقد غلطوا في ذلك لأنّ المؤمن الولي الصادق وإن كثر ذنوبه يرى الله تعالى في الآخرة عياناً بعين الظاهر بدليل قوله تعالى - جلّ جلاله -: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: 22-23]. وقد خصّ الله تعالى ذكر الرؤية بالوجوه لا بالصدور، والعين من جملة الوجه، ومستحيل أن يقال الصدر من جملة الوجه، وليس القلب مخصوصاً

(1) ينسب الصوفية هذا القول لسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. (الفتوحات المكية، وصل في فضل إيجاب الله، [2/ 220]).

بالنظر لأنّ وجود المؤمن في الجنّة كله نظر لأنّ الروح والجسد يكونان هناك شيئاً واحداً كالشمس وحرارتها وبجميع الأعضاء يرى الله تعالى، وكما يجوز أن القلب يرى الله تعالى بلا مكان، فأيضاً يجوز أن العين يرى الله تعالى بلا مكان لأنّ العين والقلب مخلوقان ليس لأحدهما على الآخر فرق بالخلقيّة، ومقصودهم في إضافة الرؤية إلى القلب نفى الرؤية لأنّهم يقولون أنّ رؤية القلب زوائد يقينيّة، وعلمه بالله لا رؤية حقيقيّة وهو خطأ عظيم وقياس فاسد، أعاذنا الله وإياكم من مذهبهم.

* وقال بعضهم إنّ الملائكة خير من النبيين والصدّيقين. وقد غلطوا في ذلك لأنّ الله تعالى أضاف روح آدم - عليه السلام - إلى نفسه، وقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29] وأيضاً أضاف تصوُّر خلقه إلى نفسه، وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] واصطفاه الله على الملائكة بنيابته، وقال: «إنّي جاعل في الأرض خليفة»، وأمرهم بالسجود له، وهذا كله تخصيص وتفضيل على الملائكة. وإن الله تعالى خلق الملائكة روحانيّة وخلق أرواح النبيين والعارفين جلاليّة وقدسيّة. وهذا أيضاً تخصيص عظيم كما قال - جلّ جلاله -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

* وقال بعض المتكلفين المتكلمين: «الروح ليس بداخل في الصورة ولا بخارج عنها»، وهذا سهو عظيم لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، فإشارة هذه الآية إلى ادخال الروح في الصورة وقولهم: «ليس بداخل ولا بخارج» من قلة فهمهم بهذه المسألة وتوهمّوا أنّ الصورة موضع ضيق لا يسع الروح، وهذا غاية الخيال وتصوير المحال لأنّ صورة الإنسان العالم السفلانيّ، وفيها قلب أوسع إلسموات والأرض والعرش والكرسي، وفيه الروح، وهو آية الله تعالى كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53].

* وقد اختلف الحكماء في مسكن العقل. إنّه مثل الحواس الخمس التي يدرك بها الإنسان الأشياء من الرائحة والطعم والشخص والصوت وجميع ذلك كلّه في الرأس. فعلمنا أنّ العقل في الدماغ، واستدلّ أهل المعرفة بذلك في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: 46]، فلمّا أوضح الله لهم بأنّ لهم قلوب يعقلون بها علمنا أنّ العقل في القلب، والأصل قول أهل المعرفة بأنّ الله تعالى خلق الروح لأجل المشاهدة والمخاطبة وخلق العقل لأجل المعاملة والمطالبة. والروح ملك البدن والعقل وزيره، وهما من سكان القلب لأنّ القلب

ولاية التجلي والمشاهدة والمكاشفة والخطاب والإلهام. وعجائب القلب مثل الأخلاق والأسرار ومكنونات العلوم والحكم. والروح مشغول بالحقيقة والعقل مشغول بالشريعة. وهما لا يفارق أحدهما الآخر في الدنيا والآخرة لأنّ الروح طالب المشاهدة والعقل طالب الجنّة، وينال العقل النعيم المقيم بالمعاملة وينال الروح مشاهدة الله - تبارك وتعالى - بالمراقبة والبيان فيما وعد الله لهما أبد الأبد، وكما قال علي بن سهل: «العقل مع الروح يدعوان إلى الآخرة ومخالفة الهوى والشهوات فلذلك سُمّيا روحين».

* وقال بعض العلماء: «إنّ الروح يذوق الموت كما يذوق الجسد»، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: 185]. وقد أخطأوا فيما توهمّوا لأنّ الروح أمر ربّاني قدسيّ جناني ملكوتي خلق من حياة أبديّة سرمديّة، رباه الله في ظلّ جلاله وضوء بهائه وعكس صفاته، لا يدخل تحت سكرات الموت ولا يجد الموت إليه سبيلاً، كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: 169-170] مع أن أرواح العارفين أظهر وأشرف عند الله تعالى من أرواح الشهداء لأنّ «نفسًا واحدًا من العارفين خير من ألف شهيد»، وما ذكره الله تعالى [من] أنّ النفس تذوق الموت فهي النفس الحيوانيّة البشريّة المركبة من الطبايع الأربعة، فإذا أراد الله تعالى خروج الروح فإنّه يناديه ويقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: 27-28]، ومن خصّ بالرجوع إلى حضرة القديميّة الباقية فكيف يموت؟ وبعد خروج الروح منها تضطرب الطبائع وتنهدم الأجسام. فذلك قوله تعالى﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] يعني التي خلق من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة، والأرواح الروحانيّ السماويّ قد صحّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 68] إنّ الاستثناء يقع على الجنّة وما فيها والنار والعرش والكرسيّ والملائكة والأرواح، وإذا كان ما دون الأرواح لا يفنى. فالأرواح أولى بالبقاء لأنّ الله تعالى خلق الأرواح من النور الساطع، ولولا إنّه سترها بخليقة الإنسان لغاب الكون في نوره كما يغيب النجوم في ضوء الشمس.

ولله عباد خصّهم بالشوق والمحبّة والمشاهدة ويتجلى لهم في كلّ يوم ألف ألف مرّة تكاد أرواحهم في كلّ مرّة تذوب من سبحات وجهه واشتياق وصاله، وكما ينظر إلى قلوبهم يحرق أبدانهم من حدّة النظر إليهم. فإذا كان كذلك صارت صافية

من كثافة الإنسانيّة ودنس الطبيعة. فإذا كان وقت التحويل صار الروح والجسد متجانساً، فتجذب الروح الجسد إلى جنات النعيم المقيم ويسلبه من عنا الموت، فيبقى مع الروح أبد الآبدين، فلا يفنى ويطير بجناح المعاملة مع الروح في عالم الملكوت كما قال الله تعالى في معراج سيّدنا محمّد - صلى الله عليه وسلم -: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]. وفي شأن عيسى - عليه السلام -﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55]، وفي حال إدريس - عليه السلام -: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: 57]، وقال - صلوات الرحمن عليه: «**نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح**»(1)، وقد حكى عن الشيخ أبي عبد الله محمّد بن خفيف - رحمه الله عليه - أنّ شاباً من الأكراد قد طار في الهوى حتى غاب عن أبصار قومه وما وجدوا من الأبدال له رجوع. وأيضاً لله تعالى عباد يطيرون في الهوى من الأبدال والأبرار والمقربين والسياحين والمختارين، ومنهم القطب والخضر - عليهما السلام - رزقنا الله وإياكم مقام العارفين المقربين.

اختلفت الأقاويل في الذي يخاطبه الله تعالى في الإنسان. قال بعضهم: «هي النفس»، واحتجوا بقوله تعالى﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: 7-8]، وأيضاً بقوله تعالى﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]. وقال بعضهم: «هو العقل»، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67]، وأيضاً بقول النبيّ - صلى الله عليه وسلم - «**أوّل ما خلق الله تعالى العقل**»(2) الحديث. وقال بعضهم: «هو القلب»، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]، وبقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: 97]، وبقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11]. وقال بعضهم: «هي الروح»، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: 169]، وبخبر النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: « **إنّ الأرواح في أجواف طير خضر**»(3) الخبر.

وقال بعضهم: «إنّ النفس والقلب والروح واحد»، وقد غلطوا في ذلك إلا من

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه الديلمي في الفردوس، ذكر حديث الأوائل، رقم (4) [1/ 13] ونصه كاملاً: «أول ما خلق الله العقل، قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: ما خلقت شيئاً أحسن منك، بك آخذ وبك أعطي، فمن كان له واعظ من نفسه كان له من الله حافظ».

قال الأصل هو الروح. أمّا من قال: «النفس هي المخاطبة» فقد وهم لأنّ النفس التي ذكرها الله تعالى في هذه المواضع هي الصورة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس: 7]، وهذا إشارة إلى تسوية الصورة. فإن سأل سائل ما معنى قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 8].

* فالجواب - وبالله التوفيق - إنّه بين طريق الخير والشرّ الذي سكن فيها وهو الروح لأنّ الصورة كسوة الروح، فإذا خرج منها صار الجسد متلاشيًا ولا خطاب مع الصورة إلا وفيها روح،

وأمّا الذي ذكره الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53] هي الميل إلى الشهوة والهوى في صورة الإنسان لامتحان الروح، وخصوص مختلفة وهي كالأخلاق المذمومة مثل البغض والجهل والبخل والحسد، وهي ظلمات خلقها الله تعالى،

أمّا التي خصصها الله بالقسم والنداء وبالرجوع كما قال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: 2]، و: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر: 27] هو الروح الملكوتيّة لأنّ الطمأنينة واللواميّة صفتان محمودتان من صفات الروح لأنّ النفس خلق من نار والروح خلق من نور، والنار يرجع إلى النور والنور يرجع إلى الله - عزّ وجلّ - كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**كلّ شيء يرجع إلى أصله**»[1]، وقال - جلّ جلاله -: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29]، وقال حسين بن منصور [الحلاج] - قدس الله روحه العزيز -: «في الإنسان كثيف ولطيف، فالأوامر على الكثيف والخطاب مع اللطيف»[2].

أمّا من قال العقل هو المخاطب فقد وهم لأنّ الله تعالى خلق العقل نوراً لضياء القلب وبيان العلم وتكليف العمل لا لمعنى آخر، والعقل سراج من الله تعالى لظلم الهياكل، ولولا العقل لبطلت الأقوال ولفسدت الأحوال.

أمّا من قال القلب هو المخاطب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: 97] و: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11] و: ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

[الإسراء: 36] وأمثال ذلك فقد غلط لأنّ القلب محل الروح ومسكنه، فإذا خطر على القلب شيء من غير ذكر الله فالمسئول هو الروح كما قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي أهل القرية، والوحي ينزل على القلب لأنّ القلب بيت الروح، ومخاطب الوحي هو الروح، والقلب مرآة الحقّ للروح، فإذا بدا فيه شيء من الغيب فهو بمنزلة الرؤية. ولكن القلب هو منظور الروح والروح هو الناظر، ومعنى الذي قاله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11]، يعني ما كذب القلب ما رأى الروح، يعني وافق ما ظهر في القلب من الرؤية. وجملة ذلك إنّ القلب هو مدينة الروح والروح ساكنها، والروح مخاطب الله فيها كما قال الحسين بن منصور [الحلاج]: «في الإنسان كثيف ولطيف» إلى آخره. وقال بعضهم: «الخلق محجبون عن الله والروح مخاطِب ومخاطَب».

أما بعد فإنّ **القلب** عند العارفين مشرق التجلي **والروح** سيّار في فلك التدلي، والقلب روزنة الملكوت والروح مصباح الجبروت، والقلب صدف الصفات والروح غواص بحر الذات، والقلب روضة الإلهام والروح راية الإكرام، والقلب معدن الأخلاق والروح أثر الأخلاق، والقلب قفص العشق والروح عندليب الشوق، والقلب بستان المحبّة والروح صفي المملكة، والقلب منهاج المكاشفة والروح ملازم معراج المشاهدة، والقلب عين الحكمة والروح مصبوغ بصبغ المعرفة، والقلب مرآة الفراسة والروح منوَّر بنور العناية، والقلب بيت الحنين والروح سكران اليقين، والقلب مدارج التوبة والروح مسافر الإنابة، والقلب ميزان الخلق والروح ريحان الحقّ.

وأمّا العقل والنفس عند العارفين، فالعقل مفسر الأسرار والنفس حامل الأوزار، والعقل إرشاد الحقّ والنفس أعداء الخلق، والعقل زاجر الوسواس والنفس بيت الافلاس، والعقل قاريء الإلهام والنفس مرتب الأحلام، والعقل مقدم الأعلام والنفس مترقب الأثام، والعقل مانع الغضب والنفس خازن الطرب، والعقل مراقب اللطف والنفس ملازم العلف، والعقل مقياس الأقوال والنفس مفسد الأفعال، والعقل متفكر الآيات والنفس مقيم الآفات، والعقل صباغ الحكمة والنفس غوّاص بحر المحنة، والعقل مملوء من الإدراك والنفس مخلوق من الإشراك.

* واعلم أن للروح والقلب والعقل والنفس أخلاقاً،

فأمّا أخلاق الروح، فالسير في الأسرار والغوص في الأقدار، ومن خلقه الطهارة والرعاية، ومن خلقه السكر والصحو، ومن خلقه القبض والبسط، ومن خلقه الخوف والرجاء، ومن خلقه السيران في الأزل، والطيران في الأبد، ومن خلقه التفرّد والتجرّد، ومن خلقه الصبر في الهجران والسير في الأحزان، ومن خلقه طلب المشاهدة والقربة للمحاضرة، ومن خلقه حفظ الأوقات وإخفاء المناجات، ومن خلقه الرضاء في الإرادة والنظر إلى سبق عناية المناجات، ومن خلقه الضحك في الانبساط والبكاء في المعاتبات، ومن خلقه الطرب في السماع والدخول في الصفاء، ومن خلقه النظر إلى وجوه الحسان والمؤانسة في الورد والريحان كما قال ذو النون المصري - رحمة الله عليه -: «من استأنس بالله استأنس بكلّ شيء مليح ووضيح وبكلّ صوت طيّب ورائحة طيّبة»، ومن خلقه الاحتراق والاشتياق، ومن خلقه استنشاق الطيّب والاشتياق إلى وجه الحبيب، ومن خلقه الحنين والأنين والصعقة والشهقة، ومن خلقه الاضطراب في الوجد والفناء في الموجود، ومن خلقه حبّ الخلوة وطلب الوصلة، ومن خلقه المشاهدة والمكاشفة، ومن خلقه الترقي في المعراج والصعود في المنهاج، ومن خلقه الفرح في البقاء والدخول تحت الفناء، ومن خلقه الترنم والترقص، ومن خلقه التبري من الناسوت والوحدة مع اللاهوت، ذكرت بعض أخلاق الروح للمسترشدين من أهل الحقائق والمقتبسين من علوم الدقائق.

وأمّا أخلاق القلب، فمن خلقه التوبة والإنابة والورع والخشية والرقة والوجل والصفاء والوفاء والصبر والقناعة والذكر والفكر والمراقبة والترصد والتواجد والحزن والصدق والإخلاص والحياء والسخاء والعلم والحلم والأمانة والديانة والسماحة والشجاعة والزهد والفقر والاستسلام والانقياد والندامة والنياحة والشفقة والرحمة، وما لا يُحصى فضائلها.

أمّا أخلاق العقل، فمن خلقه التدبر والتفكر والعلم والبيان والإشارة والكفاية والرفق والتؤدّة والنظر والاعتبار والإرشاد والانبساط والفهم والإدراك والكياسة والسياسة والجوع والعطش وترك الدنيا وما فيها، وجميع الأفعال المحمودة من أخلاق العقل، وما أشرتُ إليه كفاية لمن له فهم.

أمّا النفس، فإنّها لا تعرف بذاتها كما أنّ الروح لا تعرف بذاتها حقيقة، لأنّ

الروح أثر لطف الله تعالى والنفس أثر قهره، والقهر واللطف صفاتان من صفات الله تعالى، وصفاته وذاته واحد، كما أنّ العلم بحقيقته وكنهه محال، فالمعرفة بكيفية الروح والنفس محال لأنّ عليهما كسوتين من كسوة الله تعالى وهما القهر واللطف، ولا يطلع على حقيقة صفاته أحد من خلقه، لكن بظهور أفعالها يستدل عليها. فإن سأل سائل عن معنى قوله - عليه السلام -: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**[1] وذلك إشارة إلى كون معرفتها، فنقول أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - نفي معرفتها، وذلك إعلام منه للخلق في عجز معرفة الله - سبحانه، أي كما إنكم لم تعرفوا حقيقة المخلوق، فكيف تعرفون حقيقة الخالق، ومصداق ذلك قوله - عزّ وجلّ -﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91] كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: **«لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»**[2]، وسئل عن خطيب العارفين وطبيب المشتاقين شمع الزمان وحجّة الرحمن الشيخ الكبير أبي عبد الله بن خفيف - قدس الله روحه - عن النفس ما هي، فقال: «إنّها لا تعرف بذاتها» ولكن بظهور أفعالها يستدلّ عليها، وإن من صفاتها الخلاف للحقّ، وإنّها مائلة إلى الشهوات، ويثقل عليها العبادات وتسترح إلى البطالات، وقال الواسطي - قدس الله روحه -: «النفس ظلمة وسرّها سراجها ومن لم يكن له سرّ فهو في الظلمة أبدًا» وكما أنّ الروح له أخلاق محمودة، فالنفس لها أخلاق مذمومة، وسنبينها للمريدين إن شاء الله تعالى.

* فمن عيوبها: حبّ صحبة العوام البطالين وأهل السوق الغافلين والمحدثين الجاهلين، **ومداواتها**: صحبة العلماء الخاشعين وعباد الله الصالحين.

ومن عيوبها: صحبة التجارة وأهل الديون وإمامة الأتراك والمحبوسين الذين في دور الأمراء والاشتغال بأمورهم لأجل الدنيا، **ومداواتها**: صحبة الزهّاد والمتورعين، والتذكر لأحوال القيامة بأنواع عذاب الظالمين.

ومن عيوبها: صحبة أهل الإباحة وأهل الناموس والرياسة، وصحبة القراء المداهنين والمتفقهة الغافلين والمتصوفة الجاهلين، **ومداواتها**: صحبة أهل المهابة والديانة والسياسة من المشايخ المتقين والأولياء الصادقين.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2532) [2/ 342].

(2) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (486) [1/ 352] ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب الوتر، حديث رقم (1150) [1/ 449] ورواه غيرهما.

ومن عيوبها: صحبة الرؤساء وأهل الخيلاء والمذكرين المتصنعين والجلوس على منابرهم. **ومداواتها**: الجلوس مع أهل المراقبة من المتصوفة الصادقين الخائفين كما قال الجنيد - رحمة الله عليه -: «إذا أراد [الحق] بالمريد خيراً سهل له صحبة المتصوفة ومنعه من صحبة القراء».

ومن عيوبها: التآلف والميل إلى صحبة النساء والصبيان والنظر إلى وجوههم والمعاشرة معهم والملاعبة معهم، ويظنّ أنّ صحبتهم لا تضرّ به، كما قال تعالى﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8]. **ومداواتها**: ترك صحبتهم والدخول بين المتحابين في الله، ولا يفارقهم ساعة ولا لحظة لأنّهم حصن الله تعالى في الأرض، ومن كان منهم فهو محصون من ابليس وجنوده كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]، وقال - عليه السلام -: «**المرء كثير بأخيه**»[1]، وقال يوسف بن الحسين - قدس الله روحه -: «كلما رأيتموني افعله فافعلوه إلا صحبة الأحداث فإنّها أفتن الفتن»، وقال: «آفة المتصوفة في صحبة الأحداث والنسوان».

ومن عيوبها: الميل إلى اللهو والهزل والطيبة والاقتحام في الكبيرة وأفعال شتى كما يفعله الصبيان، وهذه الأفعال كلها تقسي القلب، **ومداواتها**: النظر في علوم القوم وآدابهم ومعاملتهم حتّى يتخلص من آفات الطبيعة ويتأدّب بآداب الحقيقة لأنّ الله تعالى وبخ قوماً من الكفار، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: 51]، وقال النبي - عليه السلام - «**لا تُمارِ أخاكَ ولا تُمازِحْهُ ولا تعدهُ موعداً فتُخلفهُ**»[2]، وقال بعضهم: «كثرة المزاح من البطالة».

ومن عيوبها: الجهالة والبطالة، **ومداواتها**: مذاكرة العلم مع أصحاب الحقيقة والشروع في معاملات المتصوفة.

ومن عيوبها: الاستئناس مع الآباء والأمهات والأقرباء والدار المزخرفة والمحلة والمعاشرين من أهل البلد، **ومداواتها**: هجران الوطن والدخول في رباط الصوفية

(1) رواه القضاعي في مسند الشهاب، المرء كثير بأخيه، حديث رقم (186) [1/ 141] ورواه الديلمي في الفردوس، برقم (6625) [4/ 205] ورواه أبو بكر القرشي في الإخوان، باب الرغبة في الإخوان، حديث رقم (24) [1/ 71].

(2) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في المراء، حديث رقم (1995) [4/ 359] ورواه البخاري في الأدب المفرد، باب لا تعد أخاك فتخلف، حديث رقم (394) [1/ 142] ورواه غيرهما.

الصادقين المجاهدين المشتاقين كما قال الله - تبارك وتعالى -﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 100] والصبر مع جهدهم وفقرهم كما قال الله تعالى لنبيّه - عليه السلام -: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28] الآية.

ومن عيوبها: حبّ المال والضياع والعقار والدار الواسعة المزخرفة المذهبة والولدان والحشم والخدم والحلي من الذهب والفضة وأنواع لباس الأبريشم، **ومداواتها**: النظر في فناء العالم، وإتيان الموت، وحبس النفس في القبر، والقيامة، والحساب في النقير والقطمير[1]، وحرّ النار، ودوام الجنّة ونعيمها، وبقاء الله - تبارك وتعالى - كما قال - جلّ اسمه -: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 26-27]، وقال النبيّ - عليه السلام -: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها»[2].

ومن عيوبها: ممرات العلم ودرس الخلاف والمجادلة في حلقة الفقهاء وقول التذكير على المنابر ومنصب الفتوى والخطابة والقضاء والعدالة وحبّ التصانيف وإنشاد الشعر والترسل والخطّ والبلاغة وكثرة اللغات والنحو والخوض في علوم النجوم والكلام وعلم الفلسفة وأشباه ذلك لأجل الطوق والطيلسان وانصراف وجوه الناس إليه وجرّ المنفعة، **ومداواتها**: ذوق صفاء العبادة وملازمة المراقبة وصحبة أصحاب الوجد والمكاشفة واستماع كلام أهل المحبّة كما حكي أن أبا العباس سريج - رحمة الله عليه - قال للشبلي: «يا أبا بكر لو نظرت في علم الفقه لاستفتوا منك» فقال الشبلي: «خاطر يحرّك سرّي أحبّ من سبعين قضية قضاها ابن سريج».

ومن عيوبها: تزيين المرقع وتخييط الملمع لأجل التصنع والاشتغال بآلات الصوفية من ألوان الثياب والخرق، وهذه الزينة تورث الوسوسة، **ومداواتها**: لبس الخشن ومراعاة السرّ كما قال رويم لبعض أصحابه: «ليس هذا الأمر إلا بذل الروح وإلا فلا تشتغل بترّهات الصوفية».

ومن عيوبها: إظهار الطاعة وحلو الكلام ومراعاة الخلق وإظهار التقشف

---

(1) القطمير: القشرة الدقيقة على النواة بين النواة والتمر. والنقير: النكتة في النواة كأن ذلك الموضع نقر منها. وفي التنزيل: «فإذاً لا يؤتون الناس نقيرًا» (لسان العرب).

(2) رواه الديلمي في الفردوس، برقم (3102) [2/ 228].

والتكلف وتصنّع في الخلوة والصيحة والتواجد لأجل الناس والصيت وقبول العوام، وهذا أصل الشرك، **ومداواتها**: الخروج من ذلك البلد والقصد بخدمة القوم في الكُذْيَة[1] وأمثال ذلك وتغيير لباس الشهرة وإظهار زيّ العوام لأنّ الله تعالى زجر المنافقين، فقال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: 142-143]، وقال النبيّ - عليه السلام -: **«شرار أمّتي من أشير إليه بالأصابع إلا من عصمه الله تعالى»**[2]، **وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله عليه -: «الرياسة ميادين إبليس ينزل فيها هو وجنوده»**.

ومن عيوبها: كثرة الأكل والشرب وشره ألوان الطعام والأدام والحلاوات وشرب الماء البارد، **ومداواتها**: صوم الدهر، وقلة الأكل كما حكى ذو النون عن الشقران - رحمة الله عليه - وهو أستاذه قال: «ما آفة المريد إلا في أكل الأدم».

ومن عيوبها: الفترة والبطالة، **ومداواتها**: صحبة العباد والجدّ في الطاعات.

ومن عيوبها: كثرة الكلام فيما لا يعنيها، **ومداواتها**: السكوت بالتكلف عمّا سوى ذكر الله تعالى.

ومن عيوبها: قول الغيبة والطعن والقذف والشتم والزور والبهتان والغمز واللمز والتحسين والتجسس واستطلاق اللسان في فضول الكلام، وهذه تورث قساوة القلب وعذاب النار، **ومداواتها**: التدبّر في كلام الله تعالى وزجره عن معاصيه والتذكّر لطول القيامة وحسابها وعظم النار وعذابها لأنّ الله تعالى قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: 24]، وقال - عليه السلام -: «إياكم والغيبة فإنّ الغيبة أشد من الزنا»[3].

ومن عيوبها: النظر في عورات المسلمين واستماع كلام الغافلين، **ومداواتها**: غضّ البصر والإعراض عن اللغو والهذر كما قال تعالى لنبيه - عليه السلام -: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30] ووصف الصادقين، قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفرقان: 72].

ومن عيوبها: البطر والنشاط والضحك والفرح بالمعاصي. **ومداواتها**: الدخول في المقابر وزيارة المشايخ والتباكي في الحضور والتجافي عن دار الغرور كما قال الله

---

(1) الكُذْية: من شدائد الدهر/ الأرض الغليظة/ الشيء الصلب بين الحجارة والطين.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(3) رواه ابن السري في الزهد، حديث رقم (1178) [2/565] ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت، باب الغيبة وذمها، حديث رقم (164) [1/119].

تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]، وقال - عليه السلام -: «إنّ الله يحبّ كلّ قلب حزين»(1).

* ومن عيوبها: الكسل في العبادات والاستراحة في البطالات، **ومداواتها**: السكون في السجود والتنبّه في الأسحار من الرقود والطمع في دار الخلود والترقب في الشهود حتّى وصل إلى المشهود.

ومن عيوبها: الحرص والطمع بما في أيدي الناس، **ومداواتها**: الصبر والقناعة على ما رزقه الله تعالى والعلم بأن الذلّ والمسكنة في الدنيا والآخرة يتولد من الطمع كما قال بعضهم: **«الطمع يذهب بماء الوجه»**.

ومن عيوبها: الأمل بطول العمر، **ومداواتها**: ترقب الموت ساعة فساعة كما قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أصحاب القبور»(2).

ومن عيوبها: التعلق عند أبناء الدنيا، **ومداواتها**: العلم بأنّ الله تعالى خالقه ورازقه وما أراد الله أن يصيبه فقد أصابه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 17]، وقال - عليه السلام - **«من تواضع لغني لأجل ماله فقد ذهب ثلثا دينه»**(3).

* ومن عيوبها: الحسد، **ومداواتها**: النظر في عيب نفسه وتوبيخها وتغييرها والعلم بأن الفضل بيد الله يوتيه من يشاء.

ومن عيوبها: البخل، **ومداواتها**: إنفاق المال على الفقراء المجردين وأهل المراقبة الذين لا يسألون الناس إلحافاً حتّى يذوق رائحة السخاوة ويخرج البخل من قلبه ببركاته وينال جنّة النعيم بمحبتهم كما قال - عليه السلام -: **«الجنة دار الأسخياء»**(4).

ومن عيوبها: سوء الخلق والعبوس بين الإخوان والزجر عليهم، **ومداواتها**:

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (7884) [4/ 351] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، إن الله يحب كل قلب حزين، حديث رقم (1075) [2/ 149] ورواه غيرهما.

(2) رواه ابن ماجة في سننه، باب من لا يؤبه له، حديث رقم (4114) [2/ 1378] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في تقارب الزمان. . ، حديث رقم (2333) [4/ 567] ورواه غيرهما.

(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2444) [2/ 316].

(4) رواه القضاعي في مسند الشهاب، [باب 80 الجنة دار الأسخياء، حديث رقم (117) [1/ 100] ورواه الديلمي في الفردوس، عن عائشة رضي الله عنها، حديث رقم (2608) [2/ 115] ورواه غيرهما.

النظر إلى آداب المشايخ ومزاجهم بشرط العلم ومسامحتهم لطاقة الوجه ومداراتهم والرفق بأصحابهم، وقال الله تعالى مادحاً نبيّه - عليه السلام - فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: 4]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، وقال - عليه السلام -: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم»[1].

ومن عيوبها: العداوة والشحناء والبغضاء، **ومداواتها**: ترك الدنيا على أهلها لأنّ هذه العلّة تتولّد من الخصومات، وهو الخصومات من المعاملات على أهل الدنيا. وهذا أمر عظيم عند الله تعالى كما قال - عليه السلام -: «ما عند الله تعالى شيء أفضل من الزهد في الدنيا»[2].

ومن عيوبها: الكبر والغضب، **ومداواتها**: النظر إلى ضعفه وعجزه وحاجته إلى كل شيء حتى لو غلب عليه البول لا يطيق أن يمسك ويدفع عن نفسه كما قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]. وينبغي أن يعلم أنّ التكبر والغضب صفتان من صفات الله تعالى، ومن يدّعي صفاته يدعي ربوبيته وهو شرك عظيم، ومن أشرك ألقاه الله تعالى في النار كما قال - عليه السلام -: «قال تعالى: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار ولا أبالي»[3].

ومن عيوبها: المكر والخديعة والبذاء والجفاء **ومداواتها**: الخوف من مجازاة الله تعالى إياه قبل مقصوده مما قصد إليه كما قال - عليه السلام -: «من حاول أمراً بمعصية كان أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما أبقى»[4].

ومن عيوبها: حبّ الغنى والفخر والخيلاء، **ومداواتها**: التواضع للصغار والكبار بالتكلف حتّى يتحقق بالخضوع والخشوع لأنّ أذل خلق الله أهل الفخر والخيلاء ويثقل على قلوب المؤمنين ويسقط عن محبّة ربّ العالمين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

ومن عيوبها: معارضة الأخوان والدعاوي البشرية، **ومداواتها**: العلم بأنّ الله

---

(1) ورد بلفظ: «إن الله يعطي بحسن الخلق درجة القائم الصائم» رواه عبد الرزاق في مصنفه، باب حسن الخلق، حديث رقم (20150) [11/ 143] ورواه عبدالله القرشي في التواضع والخمول، حديث رقم (167) [1/ 212].

(2) لم أجده بلفظه والذي ورد: عن سفيان قال: كتب عمر إلى أبي موسى إنك لن تنال الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا. رواه ابن أبي شيبة من كلام عمر بن الخطاب، حديث رقم (34469) [7/ 97].

(3) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، ما ذكر في الكبر، حديث رقم (26578) [5/ 329] ورواه القضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (1464) [2/ 331] ورواه غيرهما.

(4) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، عن أنس بن مالك، [6/ 339].

تعالى يطلع على قلبه ويخاف أن يحرم عليه الوصول إلى مقام القوم، لأنّ من ادعى ما ليس فيه لم يبلغ إلى ذلك المقام، ومن عارض القوم دخل في الخيانة ووقع في الملامة.

ومن عيوبها: الاستنكاف عن آبائه وأمّهاته، **ومداواتها**: اظهار النسبة إليهما والتخلق بين أيديهما والوقوف بخدمتهما كما قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: 14].

ومن عيوبها: تضييع الأوقات والفتور عن الوظائف من العبادات ولا يعزم بتداركها ويمهلها ساعة فساعة حتى سكن النفس بالفترة، **ومداواتها**: حفظ الأوقات والأنفاس كلما ترى شيئًا من النوافل يطلب تداركه في ساعته ولا يسمع حديث النفس ومهلتها حتّى لا يقع في البطالة كما قال الشيخ الكبير أبو عبد الله بن خفيف - رحمة الله عليه -: «ما شيء أضر على المريدين من مسامحة النفس».

ومن وعيوبها: طلب الرخص والتأويلات، **ومداواتها**: ترك مراد النفس في جميع الأشياء وإلزامها مذهب القوم لأن من أطاع النفس وقع في هاوية الهوى والشهرة، وزجر المشايخ من ترك شيئاً من الأصول واشتغل بالرخصة كما قال شيخ الشطاحين أبو بكر الطمستاني: «من فرّ من أمانة النفس رجع إلى تأويل العلم».

ومن عيوبها: كثرة النوم، **ومداواتها**: قلّة الأكل وقلّة شرب الماء ولا يأكل شيئاً غليظاً وينظر في أدب الصالحين الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه وقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذاريات: 17].

ومن عيوبها: الفرار من الخلوة والمراقبة، **ومداواتها**: الصبر في ابتداء المراقبة حتّى يريه الله تعال شيئا من المكاشفة ويذوق قلبه صفاء الذكر كما قال النبيّ - عليه السلام -: «الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

ومن عيوبها: الفرح بالفصاحة وقول الحكمة في وقت الغفلة لا في وقت الصفاء والحالات وهذا فتنة عظيمة للمريدين، **ومداواتها**: العلم بأنّ الحكمة حقّ الله تعالى، ومن ضيّع حقّ الله تعالى خاصمه الله في الدنيا والآخرة. وينبغي أن يعرف أنّ

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب الصبر عند. . ، حديث رقم (1240) [1/ 438] ورواه مسلم في صحيحه، باب في عيادة المرضى، حديث رقم (926) [2/ 637] ورواه غيرهما.

من نطق من غير حال يضيق قلوب الرجال من كلامه، واشتبه عليه علوم المعاملات.

ومن عيوبها: التعريض في السؤال، **ومداواتها**: العلم بأنّ مفاتيح الأرزاق بيد الله وقلوب العباد بأمر الله ولا يُعطَى أحدًا إلا بإرادة الله.

ومن عيوبها: الحزن والاهتمام بالرزق، **ومداواتها**: النظر إلى ما سلف من أيامه وما رزقه الله تعالى في جميع عمره، ويقيس بقية حياته بما مضى.

ومن عيوبها: معارضة السرّ بعد ذهاب المكاشفة، **ومداواتها**: زجرها عن المعارضة في كلّ حال.

ومن عيوبها: طلب الكرامات من الله تعالى لأجل الناس، وهذا من الشكّ في الطريق، **ومداواتها**: منعها من صحبة العوام وملازمتها معاملة الخواص حتّى يصل قلبه إلى صفاء الذكر وذوق المحبّة.

* ومن عيوبها: أكثر من أن يتهيأ ذكرها لأنّ النفس تغرف العيوب من بحار القهر، والقهر من صفات الله تعالى وصفاته لا تتناهى. فاكتفينا بالقليل عن الكثير لمن له رشد حتّى يعتبر بهذا القدر من كيدها ومكرها ويهتدى به إلى توفيق عيبها، والله أعلم.

غفر الله لنا ولناظري هذا الكتاب الشريف. وصلى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين.

خاتمة نسخة أخرى

في العبوديّة والعبادة يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5] وبقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23] وقد ذكرنا في مواضع جمّة من كتابنا أن من طريق الخواص من الناس من أحبّ الله لِبِرِّه فقد أشرك][1] لا يبغض العالم إلا لكونه عدوّ الله تعالى، ولا يحبّ الصالح إلا لكونه ولي الله، ولا يحبّ الطعام إلا لأنّه يقويه على طاعة الله تعالى ولا يأكل ولا يشرب ولا يلبس إلا لله تعالى بأمر الله وبإذن الله - جلّ وعلا - ولا يحبّ النبيّ والولي إلا لله وبأمر الله تعالى ولا يحبّ أهل نفسه وولده إلا لله بقدر ما أمر الله به ويخدمُهُم ويقوم بمصالحهم لله تعالى وبأمره إيّاه بذلك، وعلى هذا فقس سائر الأفعال

لا يقوم ولا يقعد ولا يشرب ماءً باردا إلا لله وفي الله وفي سبيل الله. وكلّ عمل لا لله أو عمل بغير الله فقد أشرك، وهو مشرك في العبوديّة حتى أنّه يحبّ نفسه ومنافع نفسه إلا لله تعالى على قدر ما أمره الله تعالى به. فإذا عمل كذلك فهو عبد خالص لله تعالى بشرط أن لا يباشر شيئاً من المعاصي ولا يترك شيئاً من الفرائض كما بيّنا من قبل أن من خالف الله تعالى في أوامره ونواهيه فقد عارض الله تعالى بالخلف. فافهم ذلك جداً لأنّ من فهم ذلك وآمن به وبذل المجهود في تحصيله لنفسه أرجو أن يبلغه الله إلى درجة البالغين إلى كمال العبوديّة يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: 100] ويقوم من تشبّه بقوم فهو منهم. ومن سلك مسالك قوم فقد تشبّه بهم ضرورة وكان منهم ولقوله - عليه السلام -: «من أحبّ قوماً فهو منهم»[2]. «والمرء من أحبّ»[3].

---

(1) لأنه أشرك برّه معه. فلم تكن عبادته خالصة لله تعالى.

(2) أورده ابن كثير في تفسيره، سورة الأنفال [2/ 331].

(3) رواه البخاري في صحيحه، باب علامة حب في الله عز وجل. . ، حديث (6 - 7 - 5818) ورواه مسلم في صحيحه، باب إذا أثنى على الصالح، حديث رقم (2640) [4/ 2034] ورواه غيرهما.

شرح الحجب والأستار
في مقامات أهل الأنوار والأسرار

تأليف

الشيخ أبي محمد روزبهان البقلي الشيرازي

المتوفى ٦٠٦هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تقدّس بجلاله عن نسبة الحدثان، وتنزّه بجماله عن الاحتجاب بالزمان والمكان، لم يدخل جلال وصفه وصفاته تحت نعت الناعتين، ولا جمال نعت ذاته في وصف الواصفين، ونفخ روح التجلي من القدم للعدم، وأوجد بنفسه آدم، وصوّر صورته بمباشرة نور الصفات، ونفخ روح سرّه فيه ببروز سناء الذات، وخصّ المرسلين بالرسالة والأنبياء بالنبوّة والأولياء بالكرامة والملائكة لزينة الحضرة، وقلّب قلوب المحبين في أنوار الألوهية، وطيّر أرواح العارفين في هواء الهوية، وولّه أسرار المشتاقين والعاشقين بكشف جمال وجهه، وحيّر عقول الموحدين في حقائق وصلته، ونكر الجمهور حيث منعهم عن وصولهم إليه بنعت حقيقة الإدراك، وصيّرهم في حجاب العزّة، وأرخى ستور الإغانة على قلوبهم ليزداد لهم الاشتياق، ويزيد لهم ألم الفراق، وصلى الله على محمّد، عندليب روض الوصال، ترنّم من أغصان ورد الجمال، سيّدُ ولد آدم، ومقصود الحقّ في العالم، محمّد المصطفى، وعلى آله الأخيار وصحبه الأبرار.

* قال الشيخ الإمام العالمُ العارف الصادق، مقتدي أئمة الهدى، سيّد أهل الورع والتقوى، سلطان العارفين، قدوة المحقّقين، مفخر الأقطاب، الهادي إلى سبل الصواب، مرآة الحقّ في العالم، حجّة الله في أرضه والقائم نفله وفرضه، صاحب الآيات والكرامات، صدر الملة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، كشّاف مشكلات علوم الدين، سيّد جلساء الرحمن، قطب الزمان، أبو محمّد روزبهان بن أبي نصير البقلي البستاني - رضوان الله عليه:

أما بعد، فإنّي انتبهت ليلة من الليالي، فجلست لأجمع خاطري في مقام الحضور، وراقبتُ عالم الغيب، أصْطَادُ أطيارَ الملكوت، وأرى جمال الجبروت، وأسمع مناداة الحقّ بين الصحو والسكر، فلمّا صفى سرّي، وجرى ما جرى من

أحكام المواجيد ومكاشفات الغيوب وسماع الخطاب، فناداني حبيبي: «صنّف كتاباً في معاني الحجب التي بيني وبين عبادي في مسير المقامات، وسير الحالات، وكشوف المغايبات، وبروز أنوار الصفات، ليعرف العارفون مصارع الخطرات وورود الخيالات ولطائف المكريّات»، فسنح لي أن أصنّف كتاباً فيما أمرني به سيدي ومولائي - جل وعزّ - فنظرت في حالي وتفكرت أيّش أقول، فوقع في قلبي مسألة الإغانة للنبي - صلى الله عليه وسلم، فعلمت من هناك نبذاً من لطائف الحجاب، وذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «إنّه ليغان على قلبي وإنّي لاستغفر الله في اليوم مائة مرّة»[1]، وثبت من قوله - عليه الصلوات والسلام - أنّ للأنبياء وللأولياء إغانة الأسرار واستتار الأنوار، وذلك امتحان الحقّ - سبحانه، ابتلاهم الله تعالى بعد وقائع الغيب وكشف الأسرار وبروز الأنوار بالإغانة. وهي حجب شتّى على قدر المقامات، ولكلّ عارف حجاب في كلّ مقام، وذلك مانعه عن الوصول إلى مراده.

ذكر عن الخضر - عليه السلام - إنّه قال: «بين العبد وبين مولاه ألف مقام»، وكذلك قال أبو يزيد البسطامي وذو النون المصري والجنيد البغدادي وأبو بكر الكتّاني - رحمة الله عليهم. وقال الجنيد: «في طريق الله ألف مانع حاجز عن الله سبحانه، لا بدّ من الجواز عليها»، وقال أيضاً «في الطريق ألف قصر، في كلّ قصر ألف قاطع من قطّاع الطريق وُكِّلَ على المريد السالك. ولكلّ مؤكل مكر وغدر خلاف الآخر. فإذا جاء السالك غدر المؤكل معه بشيء يعطى به، فيمنعه عن الطريق ويحجبه عن الله»، فإذا كان الأمر بهذا الوصف يجب علينا أن نبيّن علل ذلك الحجب للسالكين والدارجين والمجذوبين والطالبين والقاصرين والمريدين والعارفين ليقفوا على مهالك الطريقة ومصارع الحقيقة. ومن علم هذا العلم فهو ربّاني ملكوتي حيث عرف المنجيات والمهلكات. وفيما جمعت فوّضتُ أمري إلى الله ليعينني في جميع متفرقاتي ويهديني إلى ما يرشدني إلى المقامات وبيان المشكلات فإنه غياث كلّ مستغيث ومؤيّد كل ضعيف وهو حسبي ونعيم الوكيل.

* افهم، بارك الله في فهمك وهداك إلى أَجْوَبِ[2] الطريق من طرق معرفته، فإن بمعرفته تتمّ حقائق الأمور وشفاء الصدور. فإنّ الله تعالى لما أراد أن يعرف نفسه

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب الاستغفار. . ، حديث رقم (2702) [4/ 2075] ورواه أبو داود في سننه، باب في الاستغفار، حديث رقم (1515) [2/ 84] ورواه غيرهما.

(2) أجوب: أسرع (لسان العرب).

لخواص أهل عرفانه خلق الكون وما فيه. وأوجده من العدم إلى الوجود، أبدع أوّل المبدع، وهو الروح الذي يقوم بها الأشباح من سلالة نور القدس، وعرّف نفسه إياها محبّة لها ليقوم بإزاء سطوات الوحدانيّة وصدمات القدوسيّة إلى أبد الأبد. وخلق لها حجاباً. فضرب عليها ستوراً امتحاناً واختياراً ليقلبها بأصابع القدرة في أنوار الألوهيّة، ويعرف صانعها بنعوت مكريات القدم ولطايف الكرم. وأوّل حجاب لها حجاب العدم حيث لم يزل معدوماً. وقدم الحق - سبحانه وتعالى - سابق لها قبل وجودها. ولا أقول إنّ العدم شيء، بل إذا لم تكن تلك اللطيفة وكانت معدومة، فعدمها حجابها. وإذا لم يكن نفسها موجودة، وأوجدها الحقّ ويظهرها لظهورها في خليقة آدم - عليه السلام - قطعت أوّل حجابها. وهو أصعب الحجاب لأنّه إذا لم يرد الحقّ - جلّ جلاله - كونها موجودة لم تكن موجودة بطبعها لاستحالة الشيء أن يكون بطبعه.

* وإذا أراد الله إيجاد تلك اللطيفة تجلى بجلاله من القدم إلى العدم، وأوجد كلّ ذرّة منها وجدت من مباشرة تجلي ذاته وصفاته لذّة حالة تكوينها حتى تكونت بجذبة العشق، وكلّ ذرّة منها وجدت أيضاً عيناً من نوره، وأبصرت بجميعها الحقّ حتى نمت في مشاهدته، فغار الحقّ على نفسه، إذ لا شاهد قبل ذلك على نفسه إلا هو تعالى، فصرف عين اللطيفة من مشاهدته إلى نفسها، فأبصرت نفسها، وغابت عن مشاهدة الأوّل، ورؤية نفسها لها حجاب ثان.

* وافهم أنّ الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد خلق تلك اللطيفة تجلى من جميع الذات والصفات لها حتى تكوّنت، وذابت في سبحات العظمة في أوّل وجوه إيجاد، ثمّ أوجدها، ثمّ ذابت في تجلي الكبرياء حتى فنيت سبعين ألف مرّة بعد تكوّنها في شهود أنوار الذات والصفات، فلمّا تجلى لها بوصف البهاء بقيت في شهود البقاء، وتكاد أن تذوب أيضاً من لذة مشاهدة البهاء، فخاط الحقّ عينها وبصرها بخيط الغيرة، وذلك حجاب ثالث.

* فلمّا كمل اشتياقها إلى مصادر القدرة فتح الله عينها وبصّرها عين ذات الألوهيّة، فكادت أن تفنى من هجوم أنوار الوحدانيّة عليها، فصرف الحقّ عينها عنه، وألبسها شمايل نعوت القدم، ثمّ ردّها بصرها إلى تلك النعوت التي تلبست بها، وشغلها عنه بها، وذلك حجاب رابع.

* فلمّا رأت نفسها عشقت بنفسها من رؤية تلك الصفات والشمائل، فشغلها الحقّ عنها بمعرفة نفسها، وقال لها «إعرف نفسك» فتفكرت سبعين ألف سنة في نفسها، ثمّ تحيرت ولم تعرف نفسها بحقيقة الماهيّة، عجزت واستغاثت إلى الحق من جهلها بها، فقال لها الحقّ: «تعبت من حجاب عرفان نفسك، وذلك من غيرتي على نفسي لن تراني»، وذلك حجاب خامس.

* ثمّ خلق الله تعالى الغيب، وجعل غيباً في الغيب، وحبسها في غيب الغيب مدّة ما شاء، ورباها فيه بتعطفه وخطابه معها، وذلك غيب الغيب لها حجاب سادس.

* ثمّ ادخلها في الغيب الظاهر، وأسرج لها سراجاً فيه، فتبصر به ما ورائها من تلألؤ لمعات برق الكشوف، فيتهزز بها إلى مخرجها من فضاء بسط الوجود، وذلك الغيب الظاهر لها حجاب سابع.

* ثمّ خلق الله تعالى الكون، وأدخلها في الكون، فرأت بسيط الملك ودارت في الكائنات، وشاهدت مشاهدة الربوبيّة ووجدت من نقوش خاتم القدرة حروف علم الملكوت والجبروت، والكون لها حجاب ثامن.

* ثمّ خلق الله صورة آدم منقوشة بنقشها، مخلوقة بخلقها، منظومة بنظمها، وأدخلها فيها، وجالت في عالم الصفات، والصورة لها حجاب تاسع.

* ثمّ إنّ الله سبحانه أدخلها في القلب، ثمّ أدخلها في الفؤاد، ثمّ أدخلها في الشغاف إلى السويداء، ثمّ من السويداء إلى منظور النور، ثمّ من منظر النور إلى صحارى الغيب الذي من العرش إلى الثرى أقل منها من خردلة، وهناك لها حجاب عاشر.

* ثمّ إنّ الله سبحانه ضرب حجباً نفسانيّة وشيطانيّة، فالحجب النفسانيّة في داخل القلب، والشيطانيّة وراء القلب. وجعل جميعها امتحانا لتلك اللطيفة، وأراد سبحانه أن يمتحنها بها لتقوى في معرفته. ثمّ إنّ الله تعالى فتح عينها، وكحلها بكحل أنوار الذات والصفات، ويهيجها من حجاب غيب القلب إلى منظر النور الذي لها الحجاب الحادي عشر.

* وذلك الحجاب في منظر النور حجاب نقوش القدرة التي ترقمت فيها أشكال ملكوت عالم الالتباس، فآنسها الله برؤيتها، وبقيت من رؤية صرف الصفات،

وذلك أصعب الحجاب، فإذا قطع ذلك الحجاب وصل إلى حجاب سويداء القلب الذي هو الحجاب الثاني عشر.

* وهناك ينابيع الشهوات الروحانيّة التي يروحها بمراوح لطائف الاصطناع حيث يعطيها الشهوة الخفيّة التي تظهر في مقام العشق. والعاشق يحتجب بها عن رؤية القدس، فإذا قطعت ذلك الحجاب بقي في حجاب الشغاف. وذلك لها الحجاب الثالث عشر.

* وهناك محامل عرائس العشق، فإذا بلغ العشق إلى الشغاف، وهي هناك صارت متلذذة بسكر العشق، وينقطع عن التوحيد المجرّد. فإذا قطعت ذلك، دخل في حجاب الفؤاد، وذلك الحجاب الرابع عشر.

* وصميم ذلك حجاب الروح الذي يأتي من قبل العقل والنفس. فيحتجب بالنفس والعقل هناك عن ترائي هلال مشاهدة الصرف. فإذا قطع ذلك الحجاب وصل إلى عالم القلب، وذلك لها الحجاب الخامس عشر.

* واحتجابها به لأجل دورانها فيه لأنّه موضع وقائع الغيوب، وموضع جنود اللطفيّات والقهريّات، وعارضات الخواطر. فإذا أرادت أن ترفرف على مكامن عالم الملكوت لا تقدر لاشتغالها برؤية ما فيه من عجائب نظر القهر واللطف. فإذا قطعت قطعت ربع أسفار الغيب، حتّى بلغ إلى عالم النفس، وهي معادن حجب القهريات، وأكثر الخلق بقوا فيها ولم يصلوا إلى عالم مشاهدة الكل من عالم القدم والبقاء. فعلم أنّ أوّل حجابها حجاب الهوى، وذلك إذا تزيّن زخارف الكون بلطائف أفعال مكر الصفات التي تبرز أنوارها في عيون الهوى الذي هو ميلان النفس الأمّارة إلى حظوظها التي هي لذائذ الدنيا وما فيها. وتلك اللطيفة تستأنس بكلّ مستلذ تسوقها إلى عالم الحسن والجمال، ولا يقطع هذا الحجاب إلا بشهود جمال الأصل. والهوى لها الحجاب السادس عشر.

* ثم حجاب الشهوة، وإذا تلطفت النفس الأمارة في جوار تلك اللطيفة، طالبت شهواتها لتهتزّها إلى معدن الأصل، فترى جميع ملاذها منعوتة بلوائح أفعال الحق، فبقيت في شهواتها، وصارت حجاباً لتلك اللطيفة، فالسبب أنها حجاب لها تطلب محلّ راحتها من كلّ شيء، فإذا أنست بما رأت من شهواتها احتجبت بها عن شهود العين، وطريق التخلص منها مراقبة عالم التوحيد، وذلك الحجاب لها الحجاب السابع عشر.

* ثم يحتجب بوصف الغضب الذي هو أعظم حجابها، لأنّ ذلك وصف السبعيّة التي في طبع النفس وخلق الشيطانية. وذلك إذا هاجت النفس بالغضب صارت فورانها دُخاناً مظلماً يظلم صفاء جوهر الروح، ولا ترى في ذلك الوقت حلاوة الذكر ونور الشهود وسناء القربة، وطريق التخلص منه التحمل بالتكلف والاشتغال بالسجود والطمأنينة فيه وتذكر آلاء الحق وجبروته. والغضب لها الحجاب الثامن عشر.

* ثم حجاب الحرص، وذلك من أخلاق النفس، فإذا فغرت حيّة الحرص فاهاً لا تشبع من نهمتها حتى اشتغلت بأعظم الفساد، ولا منتهى لها. وإذا استرسلت النفس بهذا الوصف من معقل المجاهدة احتجب الروح بفسادها عن مشاهدة الغيب. وطريق التخلص منها الانفرادُ بالخلوة وغض النظر عن زينة الدنيا. وذلك لها الحجاب التاسع عشر.

* ثمّ حجاب الأمل، وذلك حبّ الحياة الفانيّة والتقاعد عن الحياة الباقية، وذلك من تأثير نهمة النفس بالتنعم، وذلك من طلبها معدن الراحة التي لا ينالها إلا في جوار الله. فإذا بقي هناك يتعلق أبواب الأنوار على الروح الناطقة. وطريق التخلص منها الغوص في بحار صفاء الذكر حتّى تصل إلى إقبال الحقّ بوصف الجمال والجلال. وذلك لها الحجاب العشرون.

* وإذا غاصت النفس في بحر الشهوات، ولم يتداركها الروح، صارت شرهة ترقص عند وصول مرادها إليها. وتفرح بما لا قيمة له من هذا العالم الفاني. وطريق التخلص منها النظر إلى ما اصطفاه الله به الأنبياء والصدّيقين حتّى صار فرحها بالله لا بغير الله. وهذا الوصف لها الحجاب الحادي والعشرون.

* فإذا ترفعت النفس الأمّارة، اهتزّت بالكبرياء لا تطيق أن ترى فوقها أحداً عليه فضل من الله – سبحانه وتعالى، وذلك من حسدها. والحسد من عين الشرك، لأنّها تبارز على الله وتسخط على الله فيما صنع، وذلك لها الحجاب الثاني والعشرون.

* وللنفس أخلاق مذمومة لا حدّ لها، كلّ خلق لها حجاب للروح لا تصل إلى الحقيقة إلا بقطعه منها، وهو الدنيا بأسرها. والنظر إليها والاشتغال بها أعظم الحجاب لأنّها تزيّنت بالزينة الروحانية والتخلص منها لا يكون إلا بكشف الآخرة. وذلك لها الحجاب الثالث والعشرون.

* ثم رياسة الدنيا، وذلك أعظم من حجاب الدنيا، لأنها مكان الربوبية، والنفس تطلب الربوبية. وطريق التخلص منها بروز نور التوحيد لعين السرّ، وهي لها الحجاب الرابع والعشرون.

* ثمّ حجاب الرياء والسمعة، وهو الشرك الذي حجب الحق به أكثر الخلق عن مشاهدة ساحة كبريائه، وطريق التخلص منها ادراك سطوات عظمة الحق. وذلك الرياء والشرك الخفي لها الحجاب الخامس والعشرون.

* ثم حجاب الزينة، والنفس تحبّ زينة الدنيا من المال والفراش والدار والعبيد والجواري والثياب، وطريق التخلص منها ظهور بوادي الواردات من عالم الملكوت وظهور الروحانيات للعقل والقلب، وتلك الزينة للروح لها الحجاب السادس والعشرون.

* ثم حجاب حبّ النساء والولدان. وهذا أعظم الحجاب، وافهم أنّ الله تعالى ألبس نور جمال القدم على وجه آدم، وورّث ذلك الحسن والجمال بعض ذريّته، وذلك محل شهوات النفوس ومحل أنس الأرواح، فتهلك النفوس بالشهوات، وتحجب الأرواح بالأنس بها عن مشاهدة التوحيد. وذلك لها الحجاب السابع والعشرون.

* ولا يخرج من هذه الحجب إلا بالمجاهدات والرياضات بعد جذب الحقّ، لأنّ ذلك سنّة الحق - سبحانه، والمجاهدات أيضاً حجاب بجهة اشتغال الروح بها، ويحتجب بتلك المقاساة لأنّها على كمال اللطافة خلقت، فإذا باشرت شيئا فيه كثافة ينقطع عن سير عالم القدس، وذلك المقام لها الحجاب الثامن والعشرون.

* وإذا وصلت إلى كمال الطهارة، وصارت النفس مطمئنة منقادة لها، وحصلت لها أخلاق محمودة، وسكن عالم القلب عن الوساوس النفسانيّة، ربّما تنظر الروح إلى سكونها وطهارة موضعها، فصار ذلك النظر لها حجاب. وذلك لها الحجاب التاسع والعشرون.

* ثمّ بقي لها حجاب الوسواس، وذلك شيطان من وراء القلب على جانب يساره، ويُلقي بذر الفضول والعوارض إلى ساحة القلب في كلّ لمحة بألف لسان يعارض الروح والعقل والسرّ والقلب. وهو أعظم الحجاب، وطريق التخلص منه استقرار صفاء الإنكار والأفكار، والوسواس لها الحجاب الثلاثون.

* وإذا تخلصت من الوساوس الشيطانيّة والنفسانيّة، فقاومها إبليس بنفسه بكلّ سلاح، وله أسلحة كثيرة. أوّلها نفي الحق وآخرها دعوى الربوبية، ولا يتخلّص منها إلا بتأييد الحق - سبحانه - حيث ألهمها عند كلّ صنعة من صنائعه بعلم ورشد ومعرفة. وهو لها الحجاب الحادي والثلاثون.

* وإذا ابتلاها الله بالأمر والنهي، امتحنها بها لتذوق ضربات القهريات، وتعرف مكان العبودية من الربوبية، وتذعن لجبروته، واشتغالها بواردات الأمر والنهي في محلّ الامتحان يكون لها الحجاب الثاني والثلاثون عن مشاهدة المشاهدة.

* وإذا باشرت النفس شهوتها، وصارت عاصية، فعصيانها لها حجاب عظيم، لأنّ تغايرها بحجبها عن صفاء الأوقات ورؤية أنوار الصفات. وذلك لها الحجاب الثالث والثلاثون. وطريق التخلص منها الانقطاع إلى الله من كلّ ما سوى الله سبحانه.

* فإذا صفت اللطيفة وصارت منوّرة بنور الغيب، وتعرف أشكال المقامات والأحوال، تريد أن تطير بجناح الشوق والعشق إلى المعشوق والمشوق. غار الحقّ على نفسه - تعالى وتقدس - وشغلها بقطع تلك المقامات حتّى يحتجب بها عنه. وإن كان تلك الحجابات مستحسنة في الطريقة، لكن يكون حجباً في الحقائق، فالشريعة حجاب لأنّها هو العلم والأعمال، وهما حجابان، فإنّ العارف إذا اشتغل عن مشاهدة الحقّ بما عن الحقّ، وللحقّ صار محجوباً عنه به. وذلك لها الحجاب الرابع والثلاثون.

* فإذا بلغ هذا المقام، يريد أن يتعلم العلم ليكون رواحل أسراره إلى عالم الملكوت، ويعرف بها حقوق الله - عزّ وجلّ - في العبودية وعرفان الربوبية. ولا بدّ من ذلك في البداية، ولكن اشتغاله بالتعلم يكون مفرق الهمم ويزيل ذوق الوقت. وإن كان بعد ذلك سبب مزيد القرب فالآن لها الحجاب الخامس والثلاثون.

* فإذا فرغ من ذلك، فيسلك مسالك المعاملات، والمعاملات امتحان الله للأرواح الراسخة في العشق والقلوب الشائقة في المحبّة لأنّها مشوّش الأسرار. وذلك لها الحجاب السادس والثلاثون.

* وافهم أنّ للمقامات مدارج، أوّلها التوبة، والتائب في مقام التوبة مستحسن الحال، فإذا انقطع إلى الحق، فله نظران: نظر إلى معصيته ونظر إلى مغفرته. وهذان

النظران يغيران مواضع نظر تلك اللطيفة لأنّها في مكان شهود عالم القدس. وذلك النظر لها الحجاب السابع والثلاثون.

* ثم بعد ذلك الزهد، وهو ترك ما يشغله عن الله، فإذا فرغ من ذلك ارتفع غبار الشهوات عن ميادين المقامات فيبدو من بين ذلك نظر إلى تركه. وذلك النظر نظر إلى ما دون الله تعالى لأنّه استحسن عمله. وذلك للروح الحجاب الثامن والثلاثون.

* ثم مقام الورع. والورع استبصار ما رزق في الأزل، فإذا اشتغل باجتناب غيره كأنه يتصرف بذاته في ملك الحق. وذلك لها الحجاب التاسع والثلاثون.

* ثم مقام الفقر، وهو الافتقار إلى الحق والخروج عمّا دون الحقّ. فإذا قصد نحو الحق بنعت الفقر، يتوهّم أنه فقير وبفقره وصل. وذلك لها الحجاب الاربعون.

* فإذا بلغ إلى مقام الصبر يوازي طوارق امتحان القدم، ويشتغل بمراعاة سكون الخاطر وقت ورود الحوادث، وذلك علة تمنعها عن مشاهدة الجمال والوصال. وهذا الحجاب الحادي والأربعون.

* وإذا نظر إلى إنعام الله تعالى أراد أن يشكره، فإذا نظر إلى المشكور خرج من الحجاب، وإن نظر إلى النعمة والشكر، سقط من الأصل إلى الفرع. وذلك الحجاب الثاني والأربعون.

* وإذا وصل إلى مقام التوكل، ولا يعرف أنّ التوكل في الحقيقة تكلف يدفع به اضطراب البشرية، لم يعرف علة الحجاب، وإلاّ فكيف يقوم الحدث محاذاة سطوات العزّة، فإذا نظر إلى الأفعال دون الذات والصفات، فهو خارج عن نعوت المشاهدة. وذلك الحجاب الثالث والأربعون.

* والراضي في مقام الرضا مع عيش وروح حين استراح سرّه عن أفكار الخليقة في اهتمام المقدرات، فظنّ إنه إذا رفع النظر عن محلّ التصرف قد وصل. وهو بروح باطنه محروم عن مطالعة الحقيقة. ذلك الحجاب الرابع والأربعون.

* وإذا بلغ إلى مقام الرضا، تهيّأت الآيات والكرامات، وتطلع سرّه على هموم القلوب، وسهلت له الفراسات، وهو يفرح بها. وذلك الحجاب الخامس والأربعون.

* ثمّ يظهر في قلبه ينابيع الحكمة، وينطق بها بين الخلق ويظن أن ليس وراء ذلك مقام، فيسكن بها عن التطرّق إلى عالم كشوف سبحات الصفات، وذلك الحجاب السادس والأربعون.

* ثمّ بان له استجابة الدعوة، كلّما همّ بشيء، يكون بسرعة، وهو يفرح بذلك، ويستحلي اجابة الدعاء. وذلك الحجاب السابع والأربعون.

* ثم يتوجه إليه افتتاح علوم الظاهر والاستنباط فيها، ويسهل عليه العبارات والإشارات والتصانيف، وذلك الحجاب الثامن والأربعون.

* ثم يكون مقبولاً بين الخلائق. ويظهر له شرف وفضل ومنظر وهيبة، وهنالك مزلة الأقدام لأنّ من يكون كذلك يحب نفسه، ويحتجب بها عن النظر إلى ما ورائها. وذلك الحجاب التاسع والأربعون.

* ثم هاجت في قلبه الشهوات الروحانية، ويتلطف باطنه بصفاء المعاملات والأذكار، وتثقل عليه الأوراد والوظائف، ويكون كسلاناً في العبادة، وذلك حجابه الخمسون.

* ثم مقام المراقبة التي هي مكان دفع الخطرات وترائي هلال المشاهدات ونظارة بساتين المكاشفات وظهور المغيبات بعيون الأسرار عند بروز الأنوار. وتنقطر من سحائب القدرة قطرات الحكمة، وتلمع بوارق تبسّم الصفات من أفواه صباح بيان وجوه عرائس العزة. فالاشتغال بنفي الخطرات والنظر إلى المغيبات، وهو الحجاب الحادي والخمسون.

* ثم مقام الخوف، وهو خوف النفس من العذاب، وخوف العقل من العتاب، وخوف القلب من الارتياب، وخوف الروح من الحجاب وخوف السر من النظر إلى الثواب، وخوف سرّ السرّ من الإذابة في نيران الكبرياء والعظمة والجلال عند كشف النقاب، وهذه المخاوف قطع طيران الروح في هواء الهويّة، وقطع سيران السرّ وسرّ السرّ في سبحات العظمة، وقطع غوص العقل في بحار الحكمات وانغماس القلب في أنهار المكاشفات، والتقاعد من محل الفناء في سطوات الذات والصفات أعظم الحجاب، وهو الحجاب الثاني والخمسون.

* ثم مقام الرجاء، وهو تروّح الروح في مقام المحبّة بمروحة الصفاء حين يطمع وصول الغيب وإدراك القرب. فكلما وجد شيئًا فيه حلاوة يستأنس به، وذلك الحجاب الثالث والخمسون.

* ثم مقام المحبّة، وهناك مكان الأنس والقدس والعين وكشف عين العين وسرّ السرّ، ومقام شهود الروح والعقل والقلب مشاهدة الصفات وأنوار الذات. وإذا بان للروح مشاهدة الحقّ بنعت الجمال والجلال يذوق حلاوة الأنس بها، وينقطع من الفناء في التوحيد والاضمحلال في التفريد، وهو الحجاب الرابع والخمسون.

* ثم مقام الشوق، وهو منازل الأنس ووجدان درة العبرات والزفرات والمواجيد والحال، هناك تطيب قلوب المشتاقين بكاء الشوق، وذلك سرّ غريب، لا يعرفه إلا أهل الكمال في المعرفة، بذلك ينقطع الأسرار عن مطالعة الحقيقة. وذلك الحجاب الخامس والخمسون.

* ثم مقام العشق، وفيه غمرات الوله والهيمان والهيجان والحيرة والغيرة والعتاب والعربدة والتحكم والانبساط، ولكل مقام من هذه المقامات سكر وصحو وغيب وفهم، وعلم كلّ ذلك سير في الصفات وقطع عن حقيقة الذات، وهو الحجاب السادس والخمسون.

* وفوق هذا المقام مقام المعرفة، أوّلها الذكر، والذكر بالحقيقة حجاب عن الملكوت لأنّ له حلاوة تشغل القلب عن إيقاع نظر السر إلى عين الصفة. وذلك الحجاب السابع والخمسون.

* ثم مقام الفكر، وهو جولان القلب والعقل في الملكوت، وطلب تحصيل معارف القدس والغوص في بحار الصفات والذات، ولهما لحظات تشغل بمطالبة أنوار الأفعال. وذلك الحجاب الثامن والخمسون.

* ثم مقام القبض، وهو تضايق الأسرار من ركوب الأنوار ووطأة أقدام القدم على صميم فؤاد العارفين، لينكسر تحت سطوات العزة، وذلك امتناع عن الحقيقة عن مطالعة الخليقة، وهذا الحجاب التاسع والخمسون.

* ثم مقام البسط، وهو انتشار نور المداناة في قلوب أهل الصفات، ولهذا المقام وجود ومواجيد وفرح واستبشار، يغلب لذائذه على الأسرار ولا يطيق الروح من الفرح أن يطالع عين الألوهية، وذلك الحجاب الستّون.

* ثم مقام العلم الذي يستفاد من شهود الروح مشاهدة الغيب. وفيه شعب الحكميّات التي فيها شغل الروح عن الطيران في مطالع البقاء والقدم، وذلك الحجاب الحادي والستّون.

* ثم مقام السكر، وهو كثرة شرب أقداح الواردات من تواتر حسن التجلي وإدراك مشاهدة الجمال والجلال ورؤية الكبرياء في بعض الأوقات. وفي هذه المنازلات حلاوات تسكر صاحبها. فإذا غلب عليه أحكام السكر يغيب عمّا يرى أهل الصحو، وذلك الحجاب الثاني والستون.

* ثم مقام الصحو، وقد ظهرت هنالك حقائق التمكين. ويتعرض إذا شرح العلوم والمقامات والمكاشفات والمعاملات، وتدارك أوقات الخلق لاهتدائهم به. والشغل بذلك الحجاب الثالث والستّون.

* ثم مقام الحياء، وذلك فناء الروح عند رؤية جلاله تعالى واجلال عزّته، والخجل عن وجوده عند وجود الحق - سبحانه - يريد أن لا يكون في كونه. وإذا كان كذلك، فيكون بعيدا عن التقدم إلى مقام إمعان النظر في حقائق القدم وعزة الوحدة، وذلك الحجاب الرابع والستّون.

* ثم مقام الجمع، وهو سكون الخطرات، والبقاء بنعت التمكن في الحال والمقامات، وظهور التجلي في الروح والصورة، وذلك احتجاب السرّ عن انفراد الحق بالحق، وهو الحجاب الخامس والستّون.

* ثمّ مقام التفرقة، وتفرقة الأسرار في أنوار العظمة والكبرياء وهو طيران الروح في هواء الهوية حين تهب بها صَرصَر طوفان تجلي الوحدة والعزة. وليس هناك لها الفناء والبقاء والوجود ولا العدم. ولا يقدر أن يستقيم بازاء بروز سطوات القدوسية. وذلك الحجاب السادس والستّون.

* ثم مقام السرّ، وهو أن يكشف الحق - سبحانه - مكنون حقائق سرّه في نفسه من محبته له. فدهشه به عن رؤية الكمال ما يخفي عليه من سرّ السرّ، وذلك مقام عجيب، وهنالك بحار المكوّنات، وهو الحجاب السابع والستّون.

* ثم مقام التوحيد، وهو استغراق العارف في بحر الأزل والأبد والفناء في الحقّ وفناء الفناء في حقيقة الحقيقة. وإذا كان كذلك يجري على مراد البقاء بعد الفناء، وذلك حجاب لطيف، وهو الحجاب الثامن والستّون.

* ثم مقام الاتحاد الذي أوّله الفناء والثاني البقاء والثالث عين الجمع. والفناء حجاب البقاء، والبقاء حجاب الفناء. وعين الجمع محض الاتحاد وظهور الحق عنه بنعت عين التجلي والمداناة، وهو في التوحيد كفر الحقيقة، ذلك أعظم الحجاب في المعرفة، وهو الحجاب التاسع والستّون.

* ثم مقام المعرفة، وهو حجاب النكرة. والنكرة حجاب المعرفة. فإذا فاز بالمعرفة، أخذته بحار النكرة عن المعرفة. فإذا عرفه، سكن به وإليه، وذلك حجاب، وإذا وقع في بحر النكرة، يكون جاهلاً بالنكرة، وفي مقام النكرة يكون جاهلاً بالمعرفة، وذلك دأبه أبد الأبد، وهو الحجاب السبعون.

* ولا يكون بعد ذلك مقام ولا حجاب، ويكون العارف أبداً في بحار الأوليّة مستغرقاً لا يفنى ولا يبقى نعتٌ. وله وَلَهٌ وهيمانٌ وهيجانٌ ومحوٌ وصحوٌ. لم يبق له عمل إلا عمل السكران، ولا علم إلا علم الحيران. فهو قطب الأقطاب وكاشف النقاب.

* ذكرت سبعين حجاباً من حجب مقامات العارفين، التي يحتجب بها أهل الحقائق عن مكنون الحقّ والحقيقة وعين العيان ووراء الوراء وعين العين ونور النور وسرّ السرّ وبيان البيان وتجلي الكنه وكشف بطون الآزال والآباد والبقاء. ومن هذا الحجاب اشتكى سيّد فرسان ميادين الأحديّة، شمس أفق البقاء، وقمر مشرق البهاء، محمّد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - في سرّ سرّه في الأوّلية وقدم القدم وأبد الأبد بقوله: «**إنّه ليُغان على قلبي وإني لاستغفر الله في كلّ يوم سبعين مرة**»[1]، أخبر - عليه السلام - عن المقامات التي أوردتها في هذا الكتاب. وإنّه كان يحول كل يوم في ميادين المعرفة على سبعين درجة من درجات القرب، ووصل السير فيما وراءه. فاستغفر من وقفته هناك واستحلائه شرب تلك المناهل العذبة. وذلك كان له كل يوم قطع سبعين حجاباً فاستغفر الله بعدد كلّ قطع حجاب حتى حصل له سبعون مقاما وسبعون استغفارا وذلك الذوق غين قلبه، لأنّه إذا ذاق طعم وصال صفة وادراك نعت ورؤية وصف وشهود عين، بقي هناك عن الطيران في أزل الأزل وأبد الأبد.

وللفناء غينٌ في الفناء في كشوف عين العظمة، فغلبته حقائق التوحيد في أفراد الحقيقة عن درك الخليقة، فاستدرك نقصان السير في الصفات والذات. فشكا عن الفترة غينا على التوحيد بقوله: «إنّه ليغان على قلبي وإنّي لاستغفر الله في كل يوم سبعين مرة».

(1) هذا الحديث سبق تخريجه بألفاظ أخرى وهذا اللفظ رواه إبن السني في عمل اليوم والليلة، باب الاستغفار. . ، حديث رقم (367) [1/ 325].

* وافهم أنّ في مسالك التوحيد سبلاً مندرسة وطرقاً منطمسة، وهي مقاطع ظهور تجلي الحقيقة حين امتنع الأزل عن مطالعة كلّ درّاك في المعرفة، وهناك في المحبة باين القدم بالقدم عن عيون المعرفة، ولا يظهر لغامس يمّ الحقائق إلا بوصف النكرة التي تطمس نظار هلال الوصال. فإذا امتنع الحقّ عنه بعد ابرازه نعوت الأوّلية بنعت النكرة له بقي استغراقه في النكرة وغيبته عن المعرفة، نبّه أعيان كواشف القرب بهذا اللفظ الذي قاله - عليه السلام - «إنّه ليغان على قلبي»[1] فلمّا احتجب بغين النكرة عن ادراك كنه الكنه، أبصر تقصيره فاستغفر الله سبعين مرة، لأنّ انقطاعه عن الوصول إلى عين العيان أعظم الذنب في مقامه، وإن كان معصوماً عن جناية الحدثان فإنّ قلّة العرفان في جناب الرحمن جناية عظيمة. وأنّى يدرك الحدثان عين عين القدم وكنه كنه الأزل؟ لكن حقوق إدراك الذات والصفات غلبت على الحدوثية، فاحتنكت أرباب المعرفة بأزمة الذلّ في سرادق العزة، وقد نبّه بذلك - عليه السلام - عمّا ذكرت بقوله - عليه السلام -: «لو أنّ الله سبحانه عذب الملائكة، لأجدر أن يعذبهم» - قيل «يا رسول الله هم معصومون» - قال: من قلّة معرفتهم على الله»[2]، فلمّا ثقل ذلك على سيّد الأنبياء - عليهم السلام - وتقطعت مطايا أسراره في بيداء الوحدانية، وعلم الحق قلة إدراكه حقيقة الذات والصفات، تلطّف عليه بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

واعلم أن الاسم غين النعت، والنعت غين الوصف، والوصف غين الصفة، وليس للصفات حدّ محدود. وكل صفة غين صفة أخرى، والصفات غين الذات، وليس لله، ولا في الله غينٌ لأنّه منزّه عن علل الحجاب. ولكن كلّ ما ذكرنا فهو غين العارف يكن محتجباً به عن النظر إلى ما وراءه، وهو تعالى بذاته حجاب العارف وغينه، بحيث لو أراد أن لا يراه أحد يمتنع عن مطالعته ولا يجد طالبه سبيلاً إلى مشاهدته، حين صرم مسالك الدنوّ عن أبصار الخلق والخليقة. فإذا كان الأمر كذلك فمن نجا قلبه في تقلّبه في أنوار الملكوت والجبروت عن الغين والغيم حيث شكا حبيب الله - صلوات الله عليه - عن الغين؟ لكن غينه عين جميع المرسلين والمقرّبين وغيبته حضور جميع المرسلين والمقرّبين والصدّيقين لأنّه كان وراء الوراء وفوق ما

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

يشير إليه أهل الوراء. لأنّ سيره خارج عن منازل الحدثان، كان طيرانه في هواء كان ما كان مساكن زبرقان جنانه وفي أبراج الصفات تقلب فيها في أيام الأزل التي قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [ابراهيم: 5] وليس هناك ليسيّة ولا حيثيّة ولا أينيّة. أوجده الله بنوره من العدم فطيّره حتى صار في ضياء شموع شموس مطالع الأوّلية، كفراش يطير في نار الشمع ونوره، ففي كل تقلب من طيرانه تحترق جنحة هممه في نيران سبحات القدم. فعند كل دورة وحرقة له هناك غين واستغفار يتحيّر الأوّلون والآخرون في غينه وعينه وذنبه واستغفاره.

* وأين العبودية والحدوثية والبشرية والشريعة والولاية والرسالة عن مقاماته التي هي مدارج روحه، رقت فيها قبل الزمان والمكان؟ فلمّا تلبس روحه بصورته، ومكث في العالم، وباين من القدم، ضاق عليه مسالك طرق الصفات وسبل الذات، حين تغشاه أعباء النبوّة والاشتغال بالرسالة. وربما صرم عن سره لحظة سلاسل أنوار الجذبات. فتأوّه وبكى عند غشيان الامتحان في أمر الرحمن، والتجأ منه إليه، واعتصم به عنه، فقال: **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك - جلّ وجهك - لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»**[1]، وذلك بعد شكواه من مباشرة قهر القدم وغيرة الأزل حين شغله به عنه لمحة، فقال: **«إنّه ليغان على قلبي»**[2]، فلمّا استدرك ما فاته من نيل الوصال وشهود الجمال وظهور الجلال وضع الذنب على نفسه عن حسن أدبه - صلى الله عليه وسلم - بعد أنّه كان يحتمل احتمال الامتحان على مطايا الأقدام الأزلية، فقال: **«إنّي لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرّة»**[3]، وكان من حسن شيمته ولطافة سرّه اعتذر من شيء ما باشره حيث تكوين المكونات وكينونة المقدرات لا يكون إلا بمشية القدم. وهكذا شأن العشّاق، قد أذنب المعشوق ويعتذر العاشق - شعر:

إذا مرضْنا أتيناكم نعودكم   وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ[4]

---

(1) (2) (3) هذا الحديث سبق تخريجه.

(4) أحد بيتين لإسحاق الموصلي: إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي أو محمد بن النديم توفي سنة 235 هجرية له مؤلفات عدة منها: (الاختيار من الأغاني) و(جواهر الكلام) والبيت الثاني هو:

شكوت ما بي إلى هند فما اكترثت   يا قلبَها أحديدٌ أنت أم حجرُ

والبيت من البحر البسيط وتفعيلته: مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

وما اجترأ على الحق في مقام انبساطه كالكليم - عليه السلام - حيث غلب عليه أمر الانبساط فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[الأعراف: 155] بل وضع - عليه السلام - ذلك على جانب الحدث، وإن كان الحدث زال في القدم، فافهم ما ذكرت لك فإنّه من مرسومات مسلك أهل التوحيد وإشارة أهل التفريد.

* وأبيّن لخواص العارفين أنّ غين العارف علمهُ بوجود نفسه في مشاهدة الحق، فلما علم بعد أن شاهد الله - تعالى وتقدّس - بقية وجوده، فيكون وجوده غينه وحجابه، لأن من شرط التوحيد أن ينسى الموحّد وجوده في مشاهدة الأحدية، فلما كان - عليه السلام - ذكر نفسه وأمّته في خطاب الأزل ليلة المعراج، حين قال الحق تعالى: «السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته»[1]. قال - صلى الله عليه وسلم -: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[1] خاطبَهُ سرّه بالغيرة، وطالبه بالفناء عن نفسه وعن أمّته. فاستدرك - عليه السلام - ما فاتهُ فقال: «إنّه ليُغانُ على قلبي وإني لاستغفر الله تعالى في كلّ يوم سبعين مرّة»[2].

* وكان - صلى الله عليه وسلم - لما وصل إلى الحق ورآه بجميع العيون، غاب في أنوار مشاهدة الحق - جلّ وعلا - حتى تحيّر ولم يدرِ رآه أم لم يره، وكان رآه غاية الرؤية بجميع العيون، لكن من كمال رؤيته كأنه لم يره. فإذا كان كذلك ظنّ أنه غاب عنه فقال: «إنه ليغان على قلبي» فنبّهه الحق فقال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[البقرة: 147] فلمّا تنبّه عن الغيبة، ورأى ما رأى، استغفر سبعين مرّة من ذلك. ومن ههنا قال النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: «أنا أولى بالشك من إبراهيم»[3]، يعني الخليل - عليه السلام - رأى عالم الملكوت بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] وأنا غائب في عيان العيان، حتى توهّم سرّي أني ما أراهُ وإنّي أراه، فأنا بمعارضة السرّ في مقام شهود العين أولى من إبراهيم

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب التشهد في الآخرة، حديث رقم (797) [1/ 286].
ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة منها: باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (402) [1/ 301] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

(3) أورده الجزري في النهاية في غريب الأثر، باب الشين مع الكاف، [2/ 495] وابن الجوزي في غريب الحديث، باب الشين مع الكاف، [1/ 555].

الذي كان يشاهد الشواهد. وفيما ذكرنا من هذه الحالة الشريفة. أنشد الشاعر بقوله:

شعر:

كبر العيان عليّ حتّى إنّه صار اليقين من العيان تُوَهُّما[1]

وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا سار سيره ما وراء الحدثان، فأمْعن النظر، فلم ير إلا غيباً في غيب وغيناً في غين واستتاراً في استتار، فتحير في الفقدان، وصبر، واستقام، وظهر بالبديهة له جمال سُبحات الحقّ. فهشّ، وبشّ، شكى إليه مما جرى عليه فقال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله» من لبثي في الاستتار والغيبة «في اليوم سبعين مرّة» وإذا ركب على أسراره أنوار العظمة. وثقل على قلبه أعباء سطوات العظمة.

واضمحل سرّه في برح[2] نور التوحيد، ووقع روحه في بحر القبض بعد البسط، فلما أسر أسراره بأسر تجلي القدم، يكون منقبضاً حتى لا يطيق فؤاده أن يطير في هواء الوصال وأنوار الجمال حيث تستريح أسرار الواصلين فيه بنور الأنس ولطائف القدس وقال: «إنه ليغان على قلبي» فلمّا انفتحت أقفال القبض عن روازن[3] قلبه، ونظر إلى هلال الجلال والجمال، استغفر سبعين مرة من لبثه في قبضة العزّة. وذلك دأب العارفين إغانتهم بين القبض والبسط والاستتار والتجلي. وافهم ما تكلفت بهذه الكلمات التي ذكرتها في مقامات سيد العارفين وسيد العالمين - صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - وحاله أجلّ وأعظم من أن يتكلم فيه مثلي.

* وإنّ الأنبياء والأولياء والملائكة استغرقوا في أوائل أحواله. ولم يستشرفوا على شيء ممّا كان فيه من أسراره الغريبة وأنبائه العجيبة ومكاشفاته العظيمة مع جلالتهم. روي أن أبا بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - قال: «ليتني شهدتُ ما استغفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم» فمتى يشرف أحدٌ عليه وأخصّ الخلق به، يتمنى أن يشرف على ذلك الحال وتلك الإغانة. وذلك حيث علِم أن ذلك حال يختصّ به دون غيره.

---

(1) هذا البيت هو للشاعر العباسي المتنبي، أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتوفي سنة 354 هجرية والبيت من البحر الكامل وتفعيلته: متفاعلن متفاعلن متفاعلن (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) البَرْحُ: الشدة والعِظَم وما أشبههما.

(3) الرَّوْزَن والرَّوزنَة: الكُوَّة، النافذة، الخرق في أعلى السقف.

* وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي - رحمة الله عليه - «سمعت عبدالله بن علي السرّاج يقول: سمعت أبا جعفر الفرغاني يقول: سئل الجنيد - قدس الله سرّه عن معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إنه ليغان على قلبي» الحديث - فسكت ساعة وقال: «لولا أنه حال النبي - صلى الله عليه وسلم - لتكلمت فيه، ولا يتكلم في حال إلا من كان مشرفاً عليها، وجلّ حال النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشرف عليه أحد من الخلق»،

وقيل: «كان حال النبي - صلى الله عليه وسلم - مع ربّه حال الصفاء، فإذا ردّ إلى حال الإبلاغ ومشاهدة الخلق وجد إغانة في سرّه وقلبه، فيستغفر منه إلى أن يصل إلى صفائه»

وهذا القول عند هذا الضعيف ضعيف لأنّ حاله - صلوات الله عليه - حالة التمكين، ولم يؤثر فيه طوارق الحدوثية لأن قلبه كان مستغرقًا في بحار الديمومة والأزلية، فكيف يؤثر فيه حال الابلاغ وتمهيد الشريعة وهو على أجلّ أحوال الاستقامة.

وقيل: «الإغانة مشاهدة الخلق والكون، والاستغفار من ذلك إذا تحقّق بمشاهدة الحقّ»، وفي هذا القول ضعف أيضاً لأنّ سرّه - صلوات الله عليه - كان معلقاً بأزمة الجذبات، وقلبه مستغرقاً في بحار بديهات التجلي والتدلي، وروحه طيّار في بساتين الهوية ونظره من الحقّ إلى الحق، فكيف يحجب الحدثان، وما زاغ بصره مرة من الحق إلى الخلق طرفة عين، حيث وصف الله تقديس سرّه وتفريد قلبه وتجريد روحه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: 17]، وقال أبو سعيد الخرّاز: «الغين شيء لا يجده إلا الأنبياء وأكابر الأولياء» وذلك لصفاء الأسرار ونقاء القلوب والاتصال لمداومة الذكر وكثرة الرعاية ودوام المراقبة. إنما وجد ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - بعلوّ همّته وحسن مشاهدته. وذلك مثل الغيم الرقيق الذي لا يدوم، ونعم ما قال الشيخ - رضي الله عنه - بين أن الإغانة كغمام رقيق منتشر في الهواء بحيث لا يرى أثره. فإغانته - عليه السلام - شبه به، وما بيّن إنه أيّ شيء، وقد وقع لي إنّها استتار هلال التجلي في غيب الغيب حيث لا حيث. وقال ابن عطاء: «الغين كالنقش في المرآة لا دوام لها ولا يؤثر فيها أثر. فإنما هي لحظة، ثم يضمحل»، قد ألحق الشيخ - قدس الله روحه - إغانته - عليه السلام - إلى صفة الخليقة وأين الخليقة في الحقيقة.

* وقيل «الإغانة كالسكينة تنزل على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد الحقّ به رفقاً»، فإن من صفته أنّه - عليه السلام - كان دائم الفكر متواصل الأحزان. وإذا أراد الحقّ به تخفيفاً ضرب على قلبه إغانة، فيكون رفقاً مما هو فيه من الفكر والأحزان. فسمي ذلك الرفق سكينة وغيناً، فإذا وجد النبي - صلى الله عليه وسلم - غيبته عن حاله الذي هو به، استغفر من رفاهيته في وقته وحاله. فإنّ الأوّلى وأتمّ وأشرف حال إغانة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الرفاهية وسكون الطبع إلى المستحسنات. فظننت أنه فوق ما قال لأنّ حاله - صلوات الله عليه - فوق حال الحزن والرفاهية. إذ الحزن والرفاهية من صفات الحدثان، والإغانة في حالة نكرة القدم في لباس النكرة وظهور الالتباس بوصف التفريد وتنزيه الأوليّة. وقيل: «الإغانة يجدها الأنبياء والخواص من الأولياء يجدون منها طرفاً على حدود أحوالهم ودرجاتهم» وقيل: «الإغانة لم يجدها إلا النبي - صلى الله عليه وسلم - وغيره من الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء - رضي الله عنهم - يجدون في مقاديرهم لأنه كان أصفاهم سرّاً وأنورهم قلباً».

وقيل الإغانة ما أخبر عن نفسه إنّه سيّد ولد آدم. فوجد في قلبه إغانة بقوله: «أنا» فرجع إلى الحقيقة وقال: «لا فخر، بل السيد هو الله» وفي هذا الكلام ضعف لأنّ دعوى النبي - صلى الله عليه وسلم - ههنا رؤية ألطاف الله تعالى، وما يخصه الله له من الدنوّ والقرب والمشاهدة. ليس دعواه دعوى البشرية. فيكون حجاباً أو إغانة. ألا ترء قوله - عليه السلام -: «ولا فخر» أي افتخاري بالله لا بنفسي. ولا بشيء دونه، ولو كان مرهوناً ومحجوباً لما قال ذلك، ولو أمعن النظر القائل ويقول «كان - عليه السلام - في محلّ الاتحاد بقوله: «أنا سيد ولد آدم»[1]. والاتحاد عين المكر لأن الحقيقة قد باينت الخليقة، ولو تكلم من الاتحاد، فاتحاده كان غيناً فاستغفر لما أفرد القدم عن الحدث. وقيل «الإغانة الرجوع من حال المشاهدة والاختصاص إلى محلّ الإبلاغ ومشاهد الخلق فيستغفر من ذلك».

* وأقول إنّ حال النبي - صلى الله عليه وسلم - مثال البحر العميق، والبحر

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، حديث رقم (2278) [4/ 1782] ورواه أبو داود في سننه، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. . ، حديث رقم (4673).

لا يتغيّر بوقوع ما سواه فيه. فكذلك بحار أسراره لا يتلوث بوقوع الخطرات فيها. وقال بعضهم: «الأسرار في داخل القلب. فتنبّه صاحبه فيستغفر» وقال رويم - قدّس الله سرّه -: «للنبي - صلى الله عليه وسلم - مشاهدات إذا شاهد معه سواه عن الإبلاغ يجد في قلبه غَينًا فيستغفر»، ونعم ما قال الشيخ، لكن بان لي في حقيقة استقامته مع الحقّ في منازل التوحيد أنّ له عيوناً، بعضها في الظاهر، وبعضها في الصدر، وبعضها في القلب، وبعضها في الفؤاد، وبعضها في العقل، وبعضها في الروح، وبعضها في السرّ، وبعضها في سرّ السرّ. ففي جميعها رأى ما رأى من العرش إلى الثرى، وما رأى بعين سرّ السرّ إلا مشاهدة الحقّ صرفاً بحيث ما زاغت تلك العين الخالصة لمشاهدة جلاله إلى غير الله طرفة عين، فإذًا لم يكن هناك عين الحدثان بل هناك طوارق نكرات من عالم الصفات والذات في أحيان الغيرة. وتلك النكرات غين عين سرّه، فإذا أبدت فيها ثم تلاشت استحفز من اسنداد سبل المعارف وقيل: «ربما يلاحظ النبي - صلى الله عليه وسلم - من خصائص أحواله وما خصّ به، فيشغل بذلك عن ملاحظة حاله مع الحقّ، فيستغفر من ذلك».

* وعجبت من هذه المقالة، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - في جميع أحواله كان مفتقرًا إلى الحقّ بما لم يجد منه بعد ما وجد ما لا يكفي له. فكيف ينظر إلى ما وجد عنه ما لم يجد منه؟

* وقد بيّن كمال عطشه واشتياقه إلى الله تعالى في قوله - عليه السلام -: «الفقر فخري»[1]، وقيل: «كان - صلى الله عليه وسلم - في علم اليقين، فلما بدا له عين اليقين وجد وحشة من الأولى، فلما بدا له حق اليقين استوحش من الحالين جميعاً فوجد في قلبه إغانة عنها» وهذه الأحوال كلها حقّ وحقيقة، هذا كلام حسن. لكن حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وراء هذه المقامات فمن كان في علم اليقين كأنه في مشاهدة الصبح الأوّل. وإذا كان في عين اليقين كأنه في مشاهدة الصبح الصادق. وإذا كان في حق اليقين كأنه في مشاهدة أوائل شعاع الشمس. ومن استغرق في حقيقة التوحيد والفناء في مشاهدة الألوهية كأنه في مشاهدة قرص الشمس إلى أن تبلغ مقام الاستواء في كبد السماء، فزالت عنه مراتب اليقين، ولم يبق له إغانة إلا إغانة فنائه في الحقّ بعد بقائه فيه. فإذا بقي بعد الفناء يستغفر من

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1835) [2/ 113] والهروي في المصنوع، [1/ 206].

الفناء. إذ الفاني في محل المحو فيفوت عنه في سكرته ما لا يفوت عن الصاحي. فإذا فات عنه - عليه السلام - ما فات، استغفر في الصحو فإنّها إغاثته.

* وقيل: «النبي - صلى الله عليه وسلم - بين افتقار إلى الله واستغناء به. فإذا استغنى به بعد افتقاره إليه وجد لحال الافتقار إغانة. فيستغفر منها» وأقول كان عين سرّه ما زاغت إلى ما وجد من الحقّ أبدًا، ولا إلى ما يجد منه. وكان بين الافتقار والاستغناء معلقًا بحقيقة الذات والصفات، ولم يؤثر فيه الافتقار والاستغفار والاستغناء. وقيل: «إذا كان في حال الفناء أخبر عن الإغانة. وإذا كان في حال البقاء استغفر منها» وهذا القول وافق ما ذكرت قبل ذلك، وقيل: «للنبي - صلى الله عليه وسلم - حال جمع وتفرقة. وحال التفرقة قيامه بسياسة نفسه وتأديبها وإظهار ما أمر به من الشرع. وإذا كان في حال الجمع يكون خالصا مع الحقّ، خاليًا عن جميع الرسوم. فيجد إغانة لحال التفرقة فيستغفر» وهذه الكلمات مثل ما قاله القوم وقد فرغتُ من شرحها.

* وإلى ما أشرتُ، قال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن خفيف - قدّس الله سرّه - في وصف قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن الأغيار في قلبه بضيائه محترقة، وبأنوار ربوبيته خامدة وبشعاع وجود ضياء قدسه منطمسة، وبمشاهدة الحقّ خانسة، وبالصحو وعيون الإفاقة عليه فانية» وقال الجنيد - قدس الله روحه -: «الغين فصل بين المقامين والحالين» وأراد بهذا القول - رضي الله عنه - إنه - عليه السلام - في كلّ أحواله على الزيادة. فإذا خرج من المقام والحال الذي كان فيه إلى مقام وحال أرفع من الأوّل فيكون له بين الحالين والمقامين بعض السكون ليكون مشرفاً في السير والمرور إلى كمال مصاعد الأحوال. فهذا الفرق بين الحالين نعته - عليه السلام - بالإغانة.

* وافهم أنّ حال النبي - صلى الله عليه وسلم - أرفع وأجلّ من أن يصفه أحد من خلق الله تعالى. فإنّه - عليه السلام - على مثابة عند الله لا يطلع عليه مثل جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وجميع الكروبيين. وأيضا، ولا يطلع على سرّه آدم ومن دونه من الأنبياء والمرسلين، فإنّه أقرب الخلق من الله تعالى ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم -: «آدم ومن دونه تحت لوائي» ولواؤه ههنا ما بينه وبين الله - عزّ وجل - من علومه المجهولة التي هي ما خصّ به من جميع الأنبياء والرسل.

* وافهم أنّ صدره - صلى الله عليه وسلم - موضع الشرح، وقلبه موضع الوحي، وعقله موضع العلم، وفؤاده موضع الرؤية، وروحه موضع الوقت، وسرّه موضع المعرفة، وسرّ سرّه موضع التوحيد وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: 1] فالشرح نور النبوّة، والوحي نور الرسالة، والرؤية كشف المشاهدة، والعلم ظهور الحقيقة، والمعرفة بروز أنوار الصفات، والتوحيد معاينة الذات بوصف القدس، فما خصّ من هذه المواضع بالإغانة إلا القلب، فإنّه موضع الإغانة. قال - صلى الله عليه وسلم - «إنّه ليغان على قلبي»[1] لأنّ ذلك المواضع فيه - عليه السلام - تقدست عن غبار الامتحان. ويقف قلبه قد ورد عليه عساكر الامتحان. وهي سطوات بحار الذات والصفات بوصف النكرات والمعارف حين غلب قهر سلطانها على قلبه. فيغرق قلبه في قلزم[2] الآزال والآباد. فإذا تحير بين جلال بحر القدرة والإرادة والمشيئة ولم ير مخرجاً من قعرها إلى ساحل الحدثان، ولم يبق عليه قوة موازات صدمات العظمة والكبرياء وغلب على قلبه غشيان غاشي النكرات، قال: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[3]، وذلك من غين النكرة في رؤية الوحدة. فنسي الحقّ في الحقّ. كذلك قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: 24]، فذلك النسيان فناء الإنسانيّة ببقاء الوحدانيّة. فتقلب قلبه في خلال أصبع القادرية. كان إغانة قلبه لأنه كان سرّه إذا وجد شيئاً من عالم الصفات، لم يتعاهد ذلك، صار سرّه غريباً فيه. فاختلطت عليه أسرار الإرادة والمشيئة ورؤية عرائس نعوت الجلاليات والجماليات. فدهش وهام في أودية الوحدانية والأوليّة حتى بلغ إلى حدّ الفناء في الله عن الله. فلما أفاق قال: «إنّه ليغان على قلبي»[4]، ثم لما تفقد نفسه بعد الإفاقة، علم أن الحدث لا يليق بالقدم. فأدى حقّ التنزيه بقوله - عليه السلام -: «ليت ربّ محمّد لم يخلق محمّداً»[5] لمحلّ الإغانة. وهذه الإغانة

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

(2) القَلْزَمَة: ابتلاع الشيء، وبه سمي البحر قلزماً. (المحيط في اللغة للصاحب بن عباد).

(3) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (1926) [2/ 706] ورواه ابن ماجه في سننه، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (3834) [2/ 1260] ورواه غيرهما.

(4) هذا الحديث سبق تخريجه.

(5) أورده ملاعلي القاري في - مرقاة المفاتيح، باب البكاء والخوف [9/ 196] وأورده البروسوي في تفسيره روح البيان، سورة العنكبوت، آية 23.

آخر حال الأنبياء والأولياء والملائكة المقرّبين. لذلك يستغفرون كما يستغفر الأنبياء الصدّيقون من الإغانة. وإغانة الملائكة خوفهم من مكر القدم. فإذا ذكروا مكره، غابوا عن رؤية مشاهدة الوصال قال الله تعالى في وصفهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: 50] وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إن جبرائيل واسرافيل يكونان من رؤية عظمة الله تعالى كالصعوة»[1] وهي طير أصغر من العصفور.

* وافهم أن إغانة كل نبي وصدّيق وملك على نوع خاص له لأنّ أحوالهم شتّى، وذلك على قدر مقاماتهم بين يدي الله تعالى. وربما وافقت إغانة واحد لإغانة آخر لأنّ حال الصدّيق يشبه حال النبي الملك. ولذلك شبه النبي - صلى الله عليه وسلم - علماء أمّته بالأنبياء فقال - عليه السلام -: «علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل»[2]، وقد وصف أبدال أمّته في حديث رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - فقال حين سئل عن شأنهم: «هم قوم يجيئون من بعدي شأنهم شأن الأنبياء وهم عند الله مثل الأنبياء»[3] الحديث. وقد شبه - عليه السلام - قلوب هؤلاء الخاصّة بقلوب الأنبياء وخواص الملائكة - عليهم السلام - في حديث صحيح. قال - عليه السلام -: «إن لله تعالى على وجه الأرض ثلثمائة قلوبهم على قلب آدم - عليه السلام - وأربعين قلوبهم على قلب إبراهيم - عليه السلام - وسبعة قلوبهم على قلب جبرائيل - عليه السلام - وخمسة قلوبهم على قلب ميكائيل - عليه السلام - وثلاثة قلوبهم على قلب اسرافيل - عليه السلام - وواحد قلبه على قلب عزرائيل - عليه السلام - فإذا مات الواحد منهم بكت له السماء والأرض والطير في الهواء والحيتان في الماء. فيبدل الله مكانه من الثلاثة» إلى آخر الحديث حيث قال: «فإذا مات أحد من الثلاثمائة يبدل الله مكانه من خيّار عباده»[4] الحديث بطوله. قد بيّن - عليه السلام - أن قلوب هؤلاء مثل قلوب الأنبياء والمقرّبين من الملائكة.

(1) أورد نحوه أحمد البلخي في البدء والتاريخ، الفصل الثاني بما يجري عليهما من الزيادة والنقصان والسهو والضعف.
(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (1744) [2/ 83] والهروي في المصنوع [1/ 195].
(3) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(4) رواه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، ترجمة أبو بكر الصديق، [1/ 8] ورواه الديلمي في الفردوس، حديث رقم (703) [1/ 187].

وشبّه قلوب الثلثمائة بقلب آدم - عليه السلام - لما غلب على قلوبهم من الحياء والخجل والندم والإجلال والتمكين والاستقامة وهجوم الحكمة في قلوبهم وعرفان علوم الأسماء العظام وحقائق العرفان لأنّه كان - عليه السلام - سباح بحر الأسماء التي هي أعلام الصفات، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وكان قلبه - عليه السلام - موضع ودائع علم الأسرار ولطائف الأقدار، من ذلك فضّله الله على الملائكة المقرّبين. ومن تلك الاصطفائية خدموه سكّان سرادق العرش، وجعلهم الله مشهورين بسجود آدم، قال تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]. فقلوب هؤلاء السادة المباركة رقت بصفاء الأوقات، وتلطفت بنور الهيبة والحياء، ينظرون إلى أنفسهم بعيون الاستحقار، ويعرفونها بالذلّ في العبودية والخضوع عند سطوات الربوبية.

وشبّه قلوب الأربعين بقلب إبراهيم - عليه السلام - في رواية وبقلب موسى برواية لما غلب على قلوبهم من أنوار اليقين وسُكر الخِلّة وكمال الشوق والمحبّة والاصطفائية لأن إبراهيم وموسى - عليهما السلام - خُصّا ممّا ذكرت. وإنّ الله سبحانه كلمهم وخاطبهم وأراهم ملكوت الغيب. وهم أهل الوَله والهيمان والصعقة والبكاء والتأوه والحلم والسخاء والهيبة.

وشبّه قلوب السبعة بقلب جبرائيل - عليهم السلام - لما غلب عليهم من أنوار التجلي الهيبة والقربة والدنّو والشوق، الخلة والخوف والإجلال والتعظيم.

وشبّه الخمسة بقلب ميكائيل، وفي رواية بقلب جبرائيل لما غلب عليهما من الخوف والرجاء والمهابة والهيبة ورؤية أنوار الغيب والبسط والقبض والوحي والخطاب والرفاهية والجدّ.

وشبّه قلوب الثلاثة بقلب إسرافيل، وفي رواية بقلب ميكائيل لما غلب على قلوبهم من أنوار المداناة وكشوف المشاهدات وطوارق لمعان الصفات في بروز سبحات الذات.

وشبّه قلب القطب بقلب عزرائيل، وفي رواية بقلب إسرافيل لما غلب على قلبه من شهود العظمة ولزوم الهيبة ورؤية أنوار القدم والبقاء ومباشرة أنوار القدرة، ولذلك سهل عليه تقليب الأعيان وقد هجمت على قلبه العلوم المجهولة، لو تكلم بكلمة منها أباح دمه الصديقون والأبدال والمقرّبون.

* وافهم أنّ آدم - صلوات الله عليه - كان مجبولاً بجميع ما جبل به جميع

الأنبياء والرسل والأولياء والملائكة لأنّه عين فطرة الروحانيين والجسمانيين من الجانبين أصلاً. وهو منبع الكلّ وأصل الأصل. وما فطر الحقّ تعالى في جميع قلوب خالصة من الأنبياء والأولياء الملائكة. فهو من فطرته انشعب في العالم لأنّه كان عين الجمع، ومنه قد جرى أنهار المعاني في قلوب ذريته. لذلك جمع - عليه السلام - قلوب ثلثمائة وشبّهها بجميع صفاتها بقلب آدم - صلوات الله عليه - لأن كلّ واحد منهم خُلق على خلق من أخلاقه وفعل من أفعاله وحال من أحواله وسرّ من أسراره ونور من أنواره وعلم من علومه وحكمة من حكمه ومعرفة من معارفه وطريق من طرقه منه إلى الحقّ تعالى.

فأكثر أحواله - عليه السلام - الحزن الدائم والقلق القائم والحياء المستقيم لأنه قد وقع في بحر البلاء من أكل الشجرة، وما رقم الحقّ عليه بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: 121-122] فمن حيث الزلة بقي الحزن والندم في قلبه بنعت الاعتراف بالذنب. ألا ترى كيف قال ربنا: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] إلى وقت الممات. وهذا شعار ثلثمائة روي أنه بكى مئتي سنة حتّى أجرى وادي سرنديب. فإذا كان حال حزنه مسرمداً شبّه - صلى الله عليه وسلم - قلوب سلاك المعرفة بقلبه من حيث الحزن والندم والاستغفار والتوبة والإنابة والرجوع والخشوع والحياء والخشية والخجل التي بقيت مع أهل الاستقامة من بدو الأحوال. فشبّه حالة قلوبهم بحالة بدايته التي صحبتُه إلى الممات لأن أهل الكمال يكونون على نعت البداية في النهاية. لذلك سئل الجنيد - قدس الله سرّه -: «ما النهايات؟» قال: «الرجوع إلى البدايات»، وما شبّه - عليه السلام - حالات قلوبهم بجميع أحوال آدم - عليه السلام -، وكان في تخصيص الاصطفائية بمثابة الانبساط وكشف المشاهدة والخطاب الأصلي مباشرة سرج الصفات والاتحاد بأنوار الذات، وذلك ما أخبر الحقّ تعالى عن تلك الخاصية بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29] ومعلوم أن أهل الهيبة مع مراتبهم محجبون بها عن مشاهدة الحسن والجمال والانبساط في الوصال. ولولا ذلك، ما أسجد إسرافيل ودونه لآدم - عليه السلام - وهو سبحانه تجلى منه إلى العالم. فيكون العالم من تجلي الحقّ من أول الفطرة. وذلك حين افتتح الحقّ جوهر قدسه في الأزل.

* تشبيهه - صلوات الله عليه - قلب الغوث بقلب إسرافيل - عليه السلام - حالة الهيبة والقدس والروحانية والاستغراق في أنوار الحضرة. وهذه حالة تكون

للقطب من البداية إلى النهاية حتّى لا يشذّ من قلبه خاطر إلى غير الحقّ، ويكون محفوظًا بحسن الرعاية من الحقّ، وهذا حزن آدم - عليه السلام - الذي صحبه من البداية إلى النهاية. وللقطب، - عليه السلام - حالات شتى، أوّلها مقام الهيبة، وأعلاها مقام المعرفة، ونهايته الاصطلام في التوحيد والفناء في عين الأزلية والعزة. ومن حيث صورة الخلق والعبوديّة شبّهه بإسرافيل - عليه السلام - ولكن من حيث الحقائق هو آدم الوقت. وجميع معانيه وصلت إليه من أصل فطرته - عليه السلام - ميراثًا. ولذلك مرجع الكلّ من تشبهه بجميع الأحوال والصفات بآدم.

* ثم شبّه - صلى الله عليه وسلم - قلوب الأربعين بقلب موسى - عليه السلام - وكأنه أرانا أنّ قلب موسى - عليه السلام - أفضل من قلب آدم - عليه السلام - حيث إن شرف الأربعين أكثر من شرف ثلثمائة. وكل من لم يكن له كمال العلم يتوهم أن قلب موسى - عليه السلام - أفضل من قلب آدم - عليه السلام - حيث بان له أن الأربعين أفضل من ثلثمائة. وذلك من قلة الفهم، ويغلط من حيث لم يدرك إشارته - صلوات الله عليه - في مقالته أنّ قلوب الأربعين مثل قلب موسى - عليه السلام - وينبغي أن يكون قلوبهم مثل قلب آدم لأنّ قلبه منبع جميع فوائد العالمين من الأنوار والأسرار والعلم والحكمة لأنّه كان عين الكلّ. لكن قد أشار - صلوات الله عليه - إلى أنّ قلوب الأربعين مواضع الشوق والصبابة والانبساط والسكر مع الصحو. فكانت هذه الأشكال قد غلبت على قلوبهم. فشبّه أحوالهم بما كان غالب مقام موسى - عليه الصلاة والسلام - وهذا في حالة واحدة قد وقع التشابه. ولهم في كمال المقامات حالات مشبهة بحالات عين فطرة آدم - عليه السلام - وهو أصل جميع الأصول. منه قد انشعبت الأحوال والمقامات، والدليل على ما ذكرنا قوله تعالى في وصف صفيّه - صلوات الله عليه -: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29] ثم زاد في شرفه حيث قال للملائكة المقرّبين: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34] فبان فضله على الجمهور إلا محمداً - صلى الله عليه وسلم - وقد تبين في الحديث المروى رجحان درجة آدم على درجة موسى في التوحيد، وذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: «قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «احتج آدم وموسى عند ربّهما فحج آدم موسى - فقال موسى: «أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وأسكنك في جنّته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض» - فقال آدم: «أنت موسى

الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كلّ شيء، وقرّبك نجياً. فبكم وجدتَ الله كتب التوراة قبل أن أخلق» - قال موسى: «بأربعين عاما» - قال آدم: «هل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[طه: 121] قال: «نعم» قال: «أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟»، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «فحجّ آدم موسى»[1].

* وإن قال قائلٌ إن موسى - صلوات الله عليه - كان مكلماً فأقول: وإن آدم - عليه السلام - أيضاً كان مكلماً، لأن في الحديث المروي معروف أن الله تعالى كلم آدم بغير واسطة وأيضاً بان في القرآن حيث قال: «يا آدم» في أي من القرآن، وإن قال قائل إنّ موسى - عليه السلام - كان نجيًا، فأيضاً كان آدم نجي الله وصفيه اصطفاه الله واجتباه على جميع الملائكة المقرّبين.

* وشبّه - صلى الله عليه وسلم - قلوب السبعة بقلب ابراهيم - عليه السلام - لأن قلبه موضع اليقين والمكاشفة والنور والبرهان والمعرفة والتوحيد والعلم والحلم والسخاء والخلة والمحبّة. فهذه المقامات شبّه قلوبهم بقلبه - عليه السلام - لأن غالب أحوال ابراهيم هذه المقامات آدم - عليه السلام - منبع جميع الأحوال والمقامات والحقائق والدرجات. وزاد فيه علم الأسماء والنعوت وغيرها من المنازل الرفيعة والأحوال الشريفة. وكذلك القياس بقلب جبرائيل وميكائيل واسرافيل - عليهم السلام - والأصل في جميع ما ذكرنا أن قلب آدم - عليه السلام - أقرب القلوب إلى الله تعالى سوى قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - ولذلك لم يشبه قلب أحد من خلق الله بقلبه - عليه السلام - لأن قلبه موضع سرّ الأسرار وحقائق الأنوار ورؤية الذات صرفاً.

ولم يفتح الحقّ تعالى على قلب أحد ما فتح على قلب المصطفى - صلوات الله عليه - من العلم اللدني والعلم المجهول وحقائق المعرفة والتوحيد والمكاشفة والمشاهدة والأسرار والأنوار، لأن قلبه كان بحار التجلي والتدلي وبروز سبحات الصفات المتشابهة وغرائب أشكال الغيوب وعجائب الربوبية التي لو كشف الله ذرة منها للخلق جميعاً لماتوا جميعاً. كذلك وصف الله قلبه بأنه وعاء مبهمات وحي

---

(1) رواه مسلم في صحيحه، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، حديث رقم (2652) [4/ 2043] ورواه النسائي في السنن الكبرى، قوله تعالى وقربناه نجيًا، حديث رقم (11318) [6/ 394] ورواه غيرهما.

الخاصّ بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: 10]. ثم أبهم ما رأى من عجائب الصفات وحقائق الذات بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: 11] وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا عاين جمال الحقّ سبحانه أخبر أنه رأى الله تعالى بعينه وبقلبه قال: «رأيت ربّي بعيني وبقلبي»[1] وهو - عليه السلام - في نفسه عيون ربّانية وأبصار ألوهية، كل عين منها أوسع من جميع المخلوقات.

وقلبه مشارق شموس سناء الذات وأنوار أقمار الصفات تطلع في كلّ ساعة من مطالع قلبه ألف مرّة شمس تجلي الذات وألف مرة زبرقان تدلي الصفات. ويشرق من مشارق صدره صباح المشاهدة وفجر المكاشفة، ويظهر في سماء عقله أنجم أنوار الأسماء والنعوت والأوصاف. وصنع الجليل - جلّ جلاله - على قلبه مهاد استواء القدم. ويتجلى في كلّ ساعة ألف مرة للعالم والعالمين. فيظهر نوره من كل شيء في أديان ظهور الحقّ للعالم لأنه عين آدم والعالم أبدع الله تعالى الكون من نوره - عليه الصلاة والسلام.

* وافهم أنّ الله خلق الخلق، ومراده منه الأنبياء والأولياء والمؤمنون ليعرفوه ويعبدوه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56] وقال: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[2]. فاختار منهم الرسل، واختار منهم المختارين المذكورين في القرآن، آدم وإدريس ونوح وصالح وهود وإبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وشعيب ويونس ولوط وعزير وأيوب وموسى وهرون ويوشع وخضر وإلياس وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد المصطفى - صلى الله عليهم أجمعين - فكلّ واحد منهم عين زمانه وقومه، تجلى الحقّ تعالى منه لذلك العالم وذلك القوم إلا آدم ومحمّد - صلوات الله عليهما - فإنّهما عينا الكلّ. آدم - صلوات الله عليه - عين الكل من حيث الفطرة والمعنى، ومحمد صلوات الله عليه عين كلّ الأكوان والحدثان، لا سيّما هو عين آدم وعين جميع الأنبياء والأولياء من حيث الفطرة والمعنى. ومصداق ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «أول ما خلق الله تعالى نوري»[3]، وذكر في حديث آخر ما هو يدلّ

(1) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(2) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (2016) [2/ 173].
(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (827) [1/ 311].

على أن من العرش إلى الثرى بان منه. فصار هو أصل جميع الأصول، فلما خلق الله آدم، جعله عين جميع ذرّيته لأنه كان عين الكلّ. فانشعب منه كلّ أحد بما خمّر الله في طينته. إن كان مؤمنا فمن طينته البيضاء، وإن كان كافرًا فمن طينته السوداء، وإن كان منافقًا فمن طينته الحمراء.

وكذلك الحسن والقبح والحزن والسهل لأنه كان - عليه السلام - منبع اللطفيات والقهريّات، تجلى منه بالقهريات للمبعدين، وتجلى منه باللطفيات للمقرّبين. وكلّ نبي وولي ومؤمن بان منه بما قسم له في الأزل من أنوار الربوبيّة وسناء الألوهية. فلمّا خرجوا من تلك المعادن صاروا موسومين بتلك الأنوار، منعوتين بذلك السناء فيظهر منه إلى الأبد ما ورثه الحقّ من عين الجمع. فلمّا غاب أعلام المرسلين، اجتمعت جميع الأسرار والأنوار والحسن والجلال والجمال والكمال والمعنى في صورة محمّد - صلى الله عليه وسلم - وقلبه وروحه وعقله وسرّه. وكمل فيه معاني جميع الأنبياء والرسل والأولياء والكرّوبيين والروحانيين والمقرّبين. وإن الله تعالى كساه نور الإلهية، وأظهر منه البراهين الساطعة والآيات الباهرة لعيون العموم والخصوص، وأبرز من حقائق باطنه أنوار ما وجد من الحقّ من مقام الدنّو والمقام المحمود للخصوص وخصوص الخصوص. وخصّ الجمهور بما قسم لهم في العهد الأوّل من شرف المعارف والكواشف. وجمع الحقّ سبحانه فيه من أنوار التجلي والتدلي والرسالة والنبوة والولاية والتوحيد والمعرفة والمحبّة والحسن والجمال والنيل والكمال، ما هو قد شعبه في جميع الأنبياء والرسل من أوائل الزمان وقبل آدم وقبل الكون إلى أوانه - عليه السلام - فسال من قاموس توحيده ومعرفته ورسالته ونبوّته ومحبّته أنهار الاصطفائية والاجتبائية في أودية قلوب المصطفين من أصحابه وأهل بيته أبدال أمّته وأولياء فطرته بقدر ما رزقهم الله سبحانه من بحر أسراره وأنواره. قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17] الآية.

* وافهم أنّ الله تعالى لما خلق الكون وما فيه، قسم من نظره - جلّ شأنه عن الوصف - ثلثمائة وستّين نظرة، وتلك النظرات وصلت إلى الوجود بوسائط فعله الخاصّ حيث لم يكن في البين ملك لا نبي ولا ولي، وبتلك النظرات ظهر في العالم ما أراد من أنواع المخلوقات. فلما أراد أن يزيد برّه وبركته في العالم من العرش إلى الثرى خلق الملائكة المقرّبين وهم حملة العرش، وجعلهم مسارج وسرج

أنوار تلك النظرات. فأسرج في قلوبهم سناء تجليه، وأضاء العالم بواسطتهم حتى بلغ الحال إلى أن خلق الجنة والنار، وفاض بركتهما إليها إلى أن بلغ إلى زمان آدم صلوات الله عليه، فخلق آدم وجعله عين الجمع، وجمع تلك النظرات في آدم عليه السلام، ثمّ تجلى من آدم للعالم تلك النظرات حتى بعث الرسل، وفرّق تلك النظرات. فتجلى من كلّ رسول إلى كلّ نبي، وتجلى من كلّ نبي إلى كلّ ولي، وتجلى من كلّ ولي بقدر تلك النظرات للعالم والعالمين.

فبقدر النظرات كان من لدن آدم إلى وقت محمد - صلى الله عليه وسلم - الرسل والأنبياء والأولياء، فكان بكلّ نظرة ولياً. فصار ثلثمائة وستّون ولياً. ففي كلّ يوم إذا أراد شيئًا نظر من نفسه إلى ذلك الولي فأحيى بها قوماً، وأمات بها قوماً، وخلق منها قوماً من بديهات الفطرة في العالم والعالمين حتى بلغت النبوّة إلى محمّد - صلى الله عليه وسلم - وإنّ الله سبحانه خلق في زمانه ثلثمائة وستّين وليا. وتجلى من نفسه - صلى الله عليه وسلم - بجميع النظرات إلى قلوبهم ومن قلوبهم إلى العالم والعالمين. فمنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين - رضوان الله عليهم أجمعين - والعشرة الباقية، وأعيان الصحابة مثل بلال وصهيب وسلمان وأسامة وحارثة ووابصة وواثلة وحذيفة وأبي ذرّ وأبي الدرداء ومعاذ وعمار والبراء، والعبادلة الأربعة، وأمثالهم ونظائرهم - رضوان الله عليهم أجمعين - فلما مضى زمانهم جعل الله في أمته بقدر تلك النظرات أولياء ونجباء وخلفاء وأبدالاً وأبرارًا وأخيارًا وأصفياء. ويتجلى من قلب كلّ ولي للعالم والعالمين، ويفيض بركاتها في العالم، وهم من عهد التابعين إلى زماننا هذا، ويكون إلى آخر الدهر ويكون ببركاتهم ارتسام الحدثان وانتظام الأكوان.

وقد أخبر بذلك - صلى الله عليه وسلم - ما يوجب الإيمان بما ذكرناه. وذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: « - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إن لله تعالى في الأرض ثلثمائة قلوبهم على قلب آدم، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، وله خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل، وله ثلثة قلوبهم على قلب ميكائيل، وله واحد قلبه على قلب إسرافيل» الحديث[1]،

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

وروى الشيخ أبو بكر الكتاني - رحمة الله عليه: «النقباء ثلثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمداء ثلاثة، والغوث واحد. فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء المشرق، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سيّاحون في الأرض، والعمداء في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكّة. فإذا عرضت الحاجة من أمر الغاية ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمداء، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث. فلا تتمّ مسألته إلا يُجاب دعوته»،

فهؤلاء السادة قد اختارهم الله تعالى بالولاية واصطفاهم بالكرامة، وجعل قلوبهم أواني مياه ديم[1] أسرار الربوبية أودعها لطائف أنوار صفاته وذاته وعلومه الغيبيّة اللدنيّة. وهم مجتبون من بين أربعة وعشرين ومائة ألف وليّ. لأن في أمّة محمد - صلى الله عليه وسلم - أربعة وعشرين ومائة ألف وليّ وهم بدلاء الأنبياء والرسل وخلفائهم. وهؤلاء المعدودون قد خصّوا أيضاً من بينهم أثني عشرة ألف وليّ، ومن بينهم أربعة آلاف وليّ، ومن بينهم أربعمائة وليّ حتّى بلغ ما ذكرنا عددهم.

وسمعت أنّ الأرض شكت إلى الله سبحانه بعد موت نبيّنا - صلى الله عليه وسلم - وقالت: «إلهي مضت الأنبياء والرسل، وما يمشي عليّ بعدهم نبيّ، وأنا لا أطيق أن أخلو عنهم» فيقول الله سبحانه لها: «بعزّتي وجلالي أخلق فيك بعدد كلّ نبيّ ورسول وليّاً من أوليائي إلى يوم القيامة»[2]، وروى عن يحيى بن كثير أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - قال لرجل: «اعلم يا ابن أخي أنّ لله - عزّ وجلّ - عباداً من عباده يقال لهم البدلاء، خلفاء من الأنبياء من بعدهم في الأرض، والأنبياء أوتاد الأرض، فلما انقطعت النبوّة أبدل الله - عزّ وجلّ - من أمّة محمّد - صلى الله عليه وسلم - قوما يقال لهم الأبدال، لم يفضلوا الناس بكثرة صلاتهم، ولا لصيامهم بالنهار، ولا لقيامهم بالليل، ولا لخشوعهم، ولا لخضوعهم، ولا لحسن حليتهم، ولكن بصدق الورع، وحسن النية، وسلامة القلب والنصيحة لجميع المسلمين ابتغاء مرضات الله تعالى بيقين ثخين، ولبّ حليم، وتواضع من غير مذلة. وهم قوم اصطفاهم الله - عزّ وجلّ - لعلمه، واستخلفهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقًا، منهم ثلاثون رجلاً،

---

(1) الديمة المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق والجمع دِيَمٌ (لسان العرب).

(2) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن - صلوات الله عليه - لا يموت منهم رجل حتّى ينشيء الله تعالى من خَلَقَه في الأرض» الحديث. وما علمت يا أخي عدد هؤلاء.

علمتُ أنّ النظرات الإلهيّة القدوسيّة الجلاليّة الجماليّة القدميّة منقسمة على هؤلاء السادة. وإن الله تعالى ينظر إلى الخلق، ويتجلى لهم من هؤلاء ثلثمائة وستّين نظرة، فينظر إلى كلّ واحد منهم في كلّ ساعة نظراً بنعت كشف جلاله وجماله. فتفيض بركات ذلك النظر في جميع العالم والعالمين، بها يحيي ويميت، وبها يقطر، وبها ينبت، وبها يدفع البلايا من أمّة محمّد - صلى الله عليه وسلم -، روي عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: «إن لله في كلّ يوم وليلة ثلثمائة وستّين نظرة، في كلّ نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفقر ويغني»، بيّن أهل الأرض لأن قلوبهم خلقت على قبول تجلي الأسماء والنعوت والصفات والذات مثال مرآة يقع فيها شعاع الشمس، ثم يقع شعاع الشمس منها إلى العالم والعالمين. وكلّ نظر بدا من فعله الخاصّ، وهو ثلثمائة وستّون فعلاً خاصاً من أفعاله تعالى، وتلك الأفعال صدرت من مصادر ثلثمائة وستّين أسماء خاصة، ومصادر تلك الأسماء هي ثلاثمائة وستون صفة خاصّة من جميع الصفات، ومصادر تلك الصفات هي عين الكل - جلّ ثناؤه عن التفريقات والتفريعات - وتلك النظرات تنزل على قلوب هذه العصابة المباركة رحمة للعالمين. وتلك النظرات في حكم رسوم العلم متفاوتة، تفاوتها كتفاوت هؤلاء في درجاتهم، فالنظر الذي ظهر في قلوب الثلاثمائة فهو بالإضافة إلى ما بعده نظر عام. وما ظهر في قلوب السبعين فهو أخصّ من ذلك، وهو نظر الخصوص، ثم ما ظهر في قلوب الأربعين أخصّ من ذلك، وهو نظر خصوص الخصوص، وما ظهر في قلوب الثلاثين فهو أخصّ مما ذكرت من تلك النظرات، ثم ما ظهر في قلوب العشرة فهو أخصّ من الجميع، ثم ما ظهر في قلوب السبعة فهو أخص من جميع ما ذكرت، وما ظهر في قلوب الثلاثة فهو أخصّ من جميع النظرات.

ثم جميع ما ذكرنا من النظرات والأفعال بتجليها، والأسماء بكشوفها، والصفات بظهورها، يجتمع بعضها في بعض حتّى خلص الجميع في فعل واحد، واسم واحد وصفة واحدة. ثم غاب الفعل في النعت، والنعت في الاسم، والاسم في الوصف، والوصف في الصفة، والصفة في الذات - جلّ جلاله - ثم هو تعالى يتجلى من صفة خاصّة، واسم خاص، وفعل خاص، غير ماذكرنا. وهي ما استأثر

لنفسه بقلب القطب - عليه السلام - وهو نائب محمّد - صلى الله عليه وسلم - في أخلاقه وشمائله وأدبه وسننه ومقالاته ومقاماته وحالاته. كما كان الصدّيق - رضي الله عنه - بعد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قطب الأقطاب، كذلك هذا القطب قطب هؤلاء السادة التي ذكرناها. وإنّ الله سبحانه جمع في قلبه حالات الملائكة والأنبياء والمرسلين والأوّلياء والصدّيقين. وهو خليفة الله تعالى في العالم، وهو آدم الثاني، وهو قائم بفعل خاص، واسم خاص، وصفة خاصّة. وهو مستغرق في بحار جمال القدم والأوّليّة والآخرية. ساعة يحضر بصفة الصحو، وساعة يغيب بنعت السكر. يسمى هذا القطب غوثاً. وهو غوث كلّ غريق، وملجأ كلّ هارب. اصطفاه الله تعالى لموقع نظره الخاصّ وعلمه الخاص. رزقنا الله تعالى وإياكم بركته، وجعلنا شبهه بمنه وجوده.

* وفيما ذكرنا من هذه المعاني، سأل واحد من تلميذ شيخنا وسيدنا أبي عبد الله محمد بن خفيف خاتم الصوفية - قدس الله أرواحهم - وهو عليّ بن محمد الديلمي: «لأيّ سرّ فيهم قامت الأرض بهم حتى لم يستغن عنهم زمان، ولا مكان؟» فقال: «سألت سؤالاً عزيزاً، فاحضر فهمك لجوابها:

اعلم أنّ لله تعالى ثلثمائة وستّين أسماً، أبدا لكلّ إسم شخصاً، وجعل لكلّ شخص منهم يوماً وزماناً، وجعل السنة ثلثمائة وستين يوماً، وجعل الليل والنهار في دور واحد وستّين درجة، وهو دور الفلك. فعند انقضاء كل درجة زمان، وعند انقضائها كلها يوم وليلة، وعند انقضاء الزمان والأيّام سنة. وجعل تلك الأشخاص مواقع نظره من هذا العالم في كلّ يوم ووقت.

وقال - صلى الله عليه وسلم -: «لله تعالى في كلّ يوم وليلة ثلثمائة وستّون نظرة. في كلّ نظرة يخلق، ويرزق، ويحيي، ويميت، ويفقر، ويغني»[1]، وكلّ نظرة منه في كلّ ساعة من كلّ ساعة يوم وليلة إلى عين من عيونه لا إلى الدنيا لأنّ الله تعالى لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها بغضاً لها. فعدد هؤلاء على عدد الأسماء، والأوقات، والأيام. فهم ثلاثمائة، وأربعون، وسبع، وخمس، وثلاث، وواحد. وذلك ثلاثمائة وستّة وخمسون.

(1) أورد نحوه البستي في المجروحين، باب الميم، حديث رقم (1000) [2/ 297].

وبقي أربعة من الأشخاص لم يدخلوا في العدد لأنّهم أحياء، ولهم الأسماء الأربعة لم ينقل عنهم، وهم المسيح، والخضر، وإلياس، وإدريس - عليهم السلام - وأُفرد واحد من الجماعة، فصار كاليوم الكبيسة من السنة. فتارة يدخل في العدد ويظهر، وتارة ينفرد ويغيب. فإذا جعل معهم دخل النبوّة، وإذا يفارق فارقهم بالتخصيص. وهو محمّد - صلى الله عليه وسلم - انفرد بالمعنى لأنّه ختم به، فانفرد له الاسم. فذلك ثلاثمائة وستّون اسماً، وثلاثمائة وستون شخصاً، وثلاثمائة وستون وقتاً، وثلاثمائة وستّون يوماً. فقال - صلى الله عليه وسلم -: «إنّ لله تعالى ثلاثمائة وستّون خلقاً، من تخلق بواحدة منها دخل الجنّة»[1]

والخلق هي الصفات المشتقة منها الأسماء يأخذ من الأشخاص البادية للأسماء على تغاير أحوالهم واختلاف وجود ذوق شربهم. فقال - صلى الله عليه وسلم -: «إنّ الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم»[2] أي من تلك الأخلاق. فإذا أراد الله نقض هذا التدبير من حركة هذه الأفلاك، وتغير هذه الأزمنة، رفع السماء، وأعدم الأشخاص، وفقد العالم، ونظر الحقّ إليه، فحينئذ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: 1-2]والخلق فنيت، والدار عطلت. ويرجع إليه ما بدأ منه، وبقي هو كما لم يزل، وفني كل شيء كما لم يكن. قال - صلى الله عليه وسلم -: «لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول لا إله إلا الله»[3] لأنهم يقدمون من يقول لا إله إلا الله» فافهم ما قلتُ لك.

نعم ما قال الشيخ في جواب علي بن محمد - قدس الله سرّه - وقد وافت قوله ما ذكرنا إلا أن قوله أحسن أجمل وأبين - بارك الله تعالى في حياته ومماته.

وافهم يا صاحبي إنما ذكرت من أحوال هؤلاء السادة يتعلق بغرض واحد، وهو شرح الإغانة. والإغانة حجاب قد شكى منه سيدنا محمّد - صلى الله عليه وسلم - فإذا ذكرت شرح الإغانة أوردت رديفه صفة قلوب أهل الولاية، الأبدال والأولياء. وهم مع ذلك لم يخلوا من حجاب الإغانة، فالإغانة حجاب الأنبياء،

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (94) [1/ 88] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (8990) [9/ 203] ورواه غيرهما.

(3) أورده العجلوني في كشف الخفاء، ضمن حديث «الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة» رقم (1267).

والأولياء، والملائكة. أما حجاب الأنبياء الاشتغال بالنبوّة والرسالة في جنب حضور أسرارهم، وأرواحهم، وعقولهم، وقلوبهم عن مشاهدة جلال الحق وجماله. وحجاب الملائكة الخوف من عقابه، ورؤية عبادتهم، وتسبيحهم، ألا ترى كيف قالوا «ونحن نسبّح بحمدك، ونقدّس لك».

* وحجاب الأولياء رؤية الكرامات والطاعات. فثلثمائة أهل الحزن الدائم، وللحزن لذة أطيب من جميع لذات أهل الدنيا، وسكونهم إلى ذلك الحال حجاب قلوبهم في جنب لوائح القدس وحقائق الأنس. وحجاب سبعين أنسهم بوجدانهم وإرادتهم. وحجاب الأربعين سكونهم إلى مقاماتهم احتجبوا بها حيث لم يفنوها في قلوبهم لأن من شرط المعرفة أن لا ينظر إلى ما دون الحقّ. وإن كان ذلك مرقاة إلى الحقّ فإنّ ذلك حجاب عظيم، وقد وجب عليهم أن ينظروا إلى ما لم يجدوا من معادن القربات والمداناة. وحجاب الثلاثين سكونهم إلى طيب وقتهم في المحبّة إلى وجدانهم برد اليقين. وحجاب العشرة سكونهم إلى نيل المراد من الحقّ سبحانه من اجابة الدعوة وفتح باب الكرم. وحجاب السبعة سكونهم إلى العلوم اللدنيّة وقلب الأعيان. وحجاب الثلاثة سكونهم إلى مقام المعرفة، وحظها، وفرارهم من منازل النكرة وحجاب القطب غيبته، وفناؤه في سكر التوحيد، وحقائق التجريد، والتفريد.

وافهم - بارك الله في فهمك - أنّ حجاب الأعلى كمال درجة الأدنى، ألا ترى إلى قولهم «حسنات الأبرار، ذنوب المقربين» سمعنا أن لأبي تراب النخشبي - قدس الله سرّه - كان تلميذاً وكان له وجد وحال شريف. وكان يدعي أشياء عظيمة من المقامات والأحوال. فكلّ وقت يقول له الأستاذ: «يا فلان، لو رأيت أبا يزيد» فغضب يوماً، وقال: «أنا أرى إله أبي يزيد، ولا أحتاج إلى أبي يزيد»، فقال الأستاذ: «ويحك أنت ترى الله بعينك، ولو رأيت أبا يزيد ترى الله بعين أبي يزيد» فتعجب المريد، فقال: «صدقت قم حتى نمضي إليه» فقام، ومضى معه إلى أبي يزيد. فلما وصلا إليه، خرج أبو يزيد من الغيضة[1]، وكان عليه فروة مقلوبة. فنظر إليه الشابّ، وصاح صيحة، وخرّ مغشيّاً عليه. فجاء أبو يزيد يحركه برجله، وقال بالفارسيّة «بچارِ خدايرا نتوانستى ديدن»، فقال أبو تراب «يا مولاي، من يراك يموت؟» فقال: «لا، ولكن كان في تلميذك سرّ، ولم يكشف له كما أراد. فلمّا رآني

(1) الغَيْل: مكان من الغيضة فيه ماء معين. (العين للفراهيدي).

ظهر له ذلك، ولم يطق حمله ومات لأنه كان من ضعفاء المريدين»، فعلمت من هذه الحكاية أنّ حجاب الرفيع غاية درجة المريد.

قال الله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: 18] وصفهم بكمال الدرجات حيث علوا على أهل الجنة بأسرها. ثم قال في وصف مشاربهم ومنازلهم فيها، فقال: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾ [المطففين: 25-26] فذلك الشراب أفضل شراب أهل الجنة، والأبرار مخصوصون به من بين أهل الجنة. ثم وصف مزاج شرابهم بقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: 27-28]. بيّن أنّ شراب الأبرار وإن كان شريفاً فهو دون شراب المقرّبين لأنّ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: 5] وشراب المقرّبين من تسنيم، وهو أرفع شراب أهل الفردوس الأعلى. ثم إنّ شراب المقربين في جنب شراب المرسلين وضيع. وشرابهم من كؤس المداناة وقهوات المواصلات وعقار المشاهدات.

* وافهم أن هذه العصابة المباركة على منازل شتّى: بعضهم مجذوبون، وبعضهم سابقون، وبعضهم صدّيقون، وبعضهم محبّون، وبعضهم مشتاقون، وبعضهم عاشقون، وبعضهم عارفون، وبعضهم شاهدون، وبعضهم مقرّبون، وبعضهم موحّدون، وبعضهم واصلون، وبعضهم النقباء، وبعضهم الأصفياء، وبعضهم الأولياء، وبعضهم النجباء، وبعضهم المصطفون، وبعضهم الخلفاء، وبعضهم البدلاء، وبعضهم الأقطاب. ولكلّ قوم من هؤلاء درجات في المعارف، والكواشف، والتوحيد، والتفريد، والخطاب، والمناجاة، والمسامرة، والمعرفة، والعربدة، والسكر، والصحو، والمحو، والفناء، والبقاء.

فإذا وصلوا إلى أعلى درجاتهم واستقاموا في مقامهم، هجمت بهم سطوات الأحوال، ولم يروغوا[1] عن محجة المعرفة إلى حلاوة الوصل. علموا علل الامتحان في جناب الرحمن، ولم يلتفتوا إلى ما وجدوا من الحقّ سبحانه لأن الالتفات إلى المقام عين الحجاب، ألا ترى كيف وصف الله تعالى حبيبه - عليه السلام - بتجريد سرّه عمّا ذكرنا فوق الكونين بين «قاب قوسين» بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: 17]

---

(1) راغ الرجل والثعلب روغاً وروغاناً مال وحاد عن الشيء.

وقع آدم - عليه السلام - في مقام العشق على حجاب أكل الحنطة طلباً لعلم الأسرار. ووقع الخليل - عليه السلام - في حجاب الملكوت حيث قال في طلب عروس القدم، فقال للشمس: «هذا ربّي» وقع موسى - عليه السلام - في حجاب الصعقة، فتاب عن طلب الرؤية. ووقع داود - عليه السلام - في حجاب الالتباس ومكر العشق حيث استأنس غير الله في مقام التوحيد. ووقع سليمان - عليه السلام - في حجاب الملك حيث قال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥﴾ [ص: 35] وكان حبيب الرحمن - صلوات الله عليه وسلامه - عرضت عليه خزائن الوجود، ولم يتغيّر سرّه بذلك، وقال: «لا، ولكن أجوع يومًا وأشبع يومًا» وهذا من كمال شفقة الله عليه حيث ما امتحنه بحجب المكرمات. في محلّ المداناة لا يبقى مكان إلا وقد وصل إليه، ولا شراب إلا ذاق منه، وقدسه وما كدر صفو وقته بكدورات الحدثان، ولا يتزاحم المكان والزمان. هذا نهاية أقدام المرسلين، وهو أوّل قدم صدقه. لذلك قال - سبحانه وتعالى -: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: 2] لم تتألم عرائس أسراره عن عيون القهريات.

* ولكن إذا أراد الله تعالى أن يكون له حجاب امتنع بجلاله لحظةً من ملاحظته. فصار الحقّ حجابه بنفسه، إذ هو منزّه عن غين الحدثان وعن أن يكون هو محلّ الحوادث. فلمّا غار هو على نفسه ستره بأسبال ستر غيرته حتّى لا يبقى له إلا هو. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88] فلمّا وجد ذلك في قلبه اشتكى من احتجاب عين القدم عن سرّه فإنّ كنه القدم ليس محلّ ادراك الخليقة بالحقيقة. فإذن، يا صاحبي، ما نجا أحد من ذلّ الحجاب، ولكن كلّ حجاب على قدر السالك بمقدار مقامه. قال أبو يزيد البسطامي - قدس الله سرّه -: «ذوق المحبّة ولذته حجاب» وقال بعضهم: «صفاء العبادة حجاب» وقال بعضهم: «الكرامات حجاب» فإذا كان كذلك، فكلّ حجاب بلاء من الله تعالى، وقد امتحن الله العباد به إلا أهل خالصته من الأنبياء والصدّيقين، ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: 2].

* وفي هذا المعنى أخبر الجنيد - قدس الله سرّه - قال: «كنت يوماً جالساً عند السري السقطي - قدس الله روحه - ومعي جماعة من أصحابه. وكان الشيخ يذكر شيئاً من العلم، فلحقه وجد، فغاب. ولم يبق فيه حركة ولا حسّ. وقد أثر في كلّ من كان حاضراً وجده.

ثمّ أفاق، وقد تغشاه نور كاد أن يخطف ببصرنا. فاقبل عليّ وقال: «يا أبا

القاسم جنيد»، قلت: «لبيك سيدي»، قال: «أتدري أين كنت»، فقلت: «لا»، قال: «اعلم إنّي أُخذت من بينكم، فحُملت فأُصعدوني من سماء إلى سماء حتّى بلغتُ السابعة.

ثمّ أجروني في حجاب أنوار كاد يخطف بصري حتّى أُوقفت على حجاب البهاء. فألبسني الله البهاء. ثم أوقفت على حجاب الهيبة، فألبست من أنوار الهيبة. ثمّ أوقفت على حجاب متكاثف لا أحسن وصف ما فيه ولا ما هو وأنا دَهِشٌ، متحيّر، فزع، مرعوب حتّى أوقفت عل حجاب العزّة. فإذا أوجدتُني، وتحققتُ أنّي بين يدي الحقّ - تبارك وتعالى - واقفٌ. فسمعتُ النداء من وراء الحجاب: «يا سَرِي» فلما سمعت الصوت خررتُ مغشياً عليّ، وزالت مفاصلي، وانقطعت أعضائي، وتمزّق جلدي، وطاش عقلي، وانصدع قلبي. فلم أدر ما كان منّي.

ثمّ إنّ الحقّ سبحانه جمعني وأوقفني بين يديه، وأنا بعد ما أتمالكُ سكون ولا الهدوء. فألبسني نور العظمة فسكنت. فناداني الثانية - فقلت: «لبيك يا سيدي»، فقال: «يا سري، أتدري كيف خلقي معي؟» قلت: «لا يا سيدي»، فقال: «اعلم إني أخرجتُ الذرية من صلب أبيك آدم. فألبستها الأنوار، وعرضت عليهم نفسي، فقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف: 172]، فعرضت عليهم الدنيا وما فيها من زينتها. فقلت: «يا عبادي انظروا إلى حسن الدنيا وزينتها،فذهب منهم إليها تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر. فقسمته على عشرة أجزاء.

ثمّ عرضت عليهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والأمن، والحبور، والبهجة، والسرور. فذهب منهم إليها تسعة أعشارهم، وبقي معي عشر. فقسمته على عشرة أجزاء. ثمّ عرضت عليهم النار وما فيها من العذاب، والهوان، والنكال، والهجران. فذهب منهم تسعة أعشارهم خوفًا، وبقي معي جزء. فقسمته على عشرة أجزاء. فألقيت عليهم بلوى الاختيار. فتقطع منهم في البلاء تسعة أعشارهم، وبقي عشر. فقسمته على عشرة أجزاء.

ثمّ عرضت عليهم بلوى المحبّة، فتفرق منهم تسعة أعشارهم، وبقى جزء واحد. فقسمته على عشرة أجزاء. فكاشفتهم بحجاب القرب. فاحترق منهم تسعة أعشارهم في نور العظمة وبقي جزء. فقسمته على عشرة أجزاء. فكاشفتهم بحجاب الهيبة. فغرق في بحر الهيبة تسعة أعشارهم فقسمته على عشرة أجزاء وبقي جزء واحد.

ثمّ كاشفتهم بحجاب العزّة. فقاموا بإزائه حيارى، دهشين، فناديتهم، ولاطفتهم، وألبستهم من أنوار العزّ. فقلت: «يا عبادي»، فأجابوني: «لبيك يا مولانا وسيّدنا» فقلت لهم: «عرضتُ عليكم الدنيا، فذهب إليها أقوام ولم تذهبوا، وعرضت عليكم الجنّة، فذهب إليها أقوام ولم تذهبوا. وعرضت عليكم النار، فهرب منها أقوام ولم تذهبوا. وبلوتكم بالاختيار، فتقطع أقوام ولم تنقطعوا. وكاشفتكم ببلاء المحبّة، فتفرق أقوام ولم تبرحوا. وكاشفتكم بحجاب القرب، فتاه أقوام وسكنتكم. وكاشفتكم بحجاب الهيبة، فجاز أقوام ووقفتم. وكاشفتكم بحجاب العزّة. فقمتم بإزائه متحيّرين، دهشين. فاثبتكم. فماذا تريدون، وماذا تطلبون؟». فقالوا: «ما نريد سواك وما نطلب غيرك، فأنت مرادنا». قلت: «يا عبادي لقد تعرضتم للبلاء المتلف الذي أتلف قبلكم عالماً بعد عالم، وما لا يحصيه غيري، قبل أبيكم آدم في أبد الآباد، وآزال الأزليّة، وأمد الديمومية، وترادف عليهم البلاء، فما بلغوا إلا العلماء. وإنّ بيني وبينكم بلاء من بلائي، لا يطيقه أحد. وهو بلاء متكاثف لا يحمله، الصفاء الصلد، ولا يقوم له الأشخاص». قالوا: «يا سيّدنا ومولانا، لا بدّ منك». قال: «افتحملون ما وصفت لكم». قالوا: «ألستَ الذي تلقي علينا البلاء». قلت: «نعم». قالوا: «رضينا بذلك». فقلت: «الآن صدقتم في صحة طلبكم، وقد استخلصتكم، وجعلتكم أوعية علمي وأماكن سرّي، فأنتم ناطقون منّي، الداعون إليّ، وأنا لكم وأنتم لي، أناجيكم وتناجوني. وأنتم أهل المكاشفات، وأهل المؤانسات، والمتحكمون في المملكة، وأهل الخصوص والصفوة. فبلّغ عنّي، يا سري، خلقي إنّي أنا اللطيف الخبير. فافهم عنّي وبلغ ما سمعت منّي. وكن بعبادي غفورًا رحيمًا». قال: «ثمّ رَدَّني، فرجعتُ إليكم، فافهم يا أبا القاسم ما ذكرتُ لك» - قال الجنيد - قدس الله سرّه -: «ما ذكرت هذه الحكاية حتّى توفي الشيخ - رضي الله عنه - فإن يكفيها زيادة أو نقصان فأنا أستغفر الله من ذلك».

* إنّي أوردت هذه المكاشفة العزيزة لينظر الناظر فيها، وينعم نظره باللطف ولبّ الحكمة، ويعرف حقائق الأمور بها، ويتفكر فيما ذكرنا من حجب طرق المعارف والكواشف، ويفقه إشاراتنا إلى الإغانة في مقام المحبّة والوصلة لأنّ الله سبحانه علمنا بذلك أن في قلوب أهل الغيوب استتارًا وتجليًا. ولا يخلو قلوب العارفين منها حتّى وصلوا إلى مرادهم من كشف عيان العيان في مشاهدة الرحمن. فذلك الحجاب بلاء هذه الطائفة. وهو بلاء الحجاب. ألا ترى كيف امتحنهم فيما

أخبرنا الشيخ من معراجه أن الله ابتلاهم ببلايات الحجاب امتحانًا لهم ليحترقوا في نيران الأشواق في مقام الفراق؟ هذا سري السقطي - رحمة الله عليه - قد استعاذ بالله في طيران سرّه إليه بقوله: «إلهي مهما تعذبني بشيء فلا تعذبني بذلّ الحجاب». وقال بعضهم: «الفوت أشدّ من الموت».

وأنشد الجنيد - رحمة الله عليه - في مقام الفراق. شعر:

كان لي مشرب يصفو برؤيتكم فكدّرَتْه يدُ الأيام حين صفا

وقد اشتكى الشبلي - رحمة الله عليه - يوماً فانشد، شعر:

أظلت علينا يوماً منك غمامة أضاءت لنا برقاً وأبطأ رشاشها

فلا غيمها يجلو فييأس طامع ولا غيثها يأتي فيروي عطاشها

وأنشد الآخر (شعر):

منازلاً ليت تهويها ويألفها أيام أنت على الأيام منصور[1]

وقال الآخر (شعر):

أولى البرية طراً أن تواسيه عند السرور الذي واساك في الحَزَن

إنّ الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن[2]

وقد أنشد علي الأسود ليلة من العتمة إلى الصباح (شعر):

كان اعتمادي على محبّتكم فصرت أبكي دمًا بفرقتكم

وقال رجل لأبي محمّد الجريري: «كنت على بساط الأنس، وفتح لي طريق إلى البسط. فزللت زلة، فحجبت عن مقامي، فكيف السبيل إليه دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟»، فبكى أبو محمّد وقال: «يا أخي، الكلّ في قهر هذه الخطيئة. لكن أنشدك أبياتاً لبعضهم».

فأنشأ يقول (شعر):

(1) لم أعثر على قائل هذا البيت.

(2) هذان البيتان للشاعر في العصر العباسي إبراهيم بن العباس الصولي المولود سنة 176 هـ والمتوفي سنة 243 هجرية له مؤلفات عدة منها (كتاب الدولة) و(كتاب العطر). (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

قف في الديار فهذه آثارهم تبكي الأحبّة حسرة وتشوّقا
كم قد وقفت بها أسائل مخبرًا عن أهلها أو صادقًا أو مشفقًا
فأجابني داعي الهوى في رسمها: فارقتَ من تهوى فعزّ الملتقا[1]

يا لبيب! تغوص في بحر لا يساحل ونهر لا يساجل. وتطلب عناقيد كواكب العرش بيد شلاء، ترى السراب وتظنّ أنه ماء. قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: 39]، هكذا شأن عطشان بحار القدم. يرى رسوم الربوبية، ويظن أنّه يصل إلى أصل القدم، هيهات! الصبّي رأى القمر في رأس الجبل، ويظنّ أنّه إذا صعد إلى رأس الجبل يأخذ القمر. وكيف يأخذ، والقمر وراء حجاب جبل قاف (شعر):

أتطمع في ليلى وتعلم أنها تقطع أعناق الرجال المطامعُ[2]

يا صاحبي! كيف يقترن القدم بالحدث ومسالكه عزيزة منزهة عن مطالعة الخليقة؟ شعر:

أيّها المنكح الثريا سهيلا عمّرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما اسْتَقَلَّت وسهيل إذا ما استقلّ يمان[3]

أيّها الطالب! قد سدّ مطالع شموس الآزال وأقمار الآباد عن إدراك نظار المعرفة وسلاك المحبّة. وقتلني سيف الامتحان بعد الوصول والامتنان وأقوم يوماً فيوماً، شعر:

سلام على تلك المعاهد أنّها شريعة وردي أو مهبّ شمال
ليالي لم يحضر حزون قطيعة ولم يمش إلا في سهول وصال
فقد صرت أرضى من سواكن أهلها بخلّب برق أو بطيف خيال[4]

---

(1) لم أعثر على قائل هذه الأبيات.

(2) لم أعثر على قائل هذه الأبيات.

(3) هذان البيتان للشاعر في العصر الأموي النعمان بن بشير الأنصاري أمير وخطيب وشاعر من أجلاء الصحابة من أهل المدينة، وأبوه صحابي جليل له مكانة عند الرسول فقد كان يعقد له لواء السرايا، وأمه عمرة بنت رواحة أخت الصحابي الجليل عبدالله بن رواحة ولد سنة 2 هـ وتوفي سنة 65 هجرية. والأبيات من البحر الخفيف وتفعيلته: فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(4) لم أعثر على قائل هذه الأبيات.

كما عاشق مقتول بسيوف القطيعة صريع سنابك خيول الغيرة، وليس له من يبكي عليه. شعر:

ألـم يـأن لـلـهـجـران أن يـتـصـرّمـا؟ وللغصن غصن البانِ أن يتبسّما؟
وللعاشق الصبّ الذي ذاب وانحنى ألـم يـأن أن يُـبـكـى عـلـيـه ويُـرحـمـا[1]

شاهدت هلال الوحدانية، وغيّبني عن وصوله غيرة الأزلية، فبقيت بين الفصل والوصل، وليس لي مهرب ولا ملجاء أبكي منه عليه. شعر:

يـا هـلال الـسـمـاء كـطـرف كـلـيـل إذا مــا بــدا أضــاء طــرفــيــه
كـنـت أبـكـي عـلـيّ مـنـه فـلـمـا أن تـولـى بـكـيـت مـنـه عـلـيـه[2]

رسمت هذا الكتاب من سرّ جريح وقلب قريح، وختمته بما ورد عليّ من واردات الامتحان في جناب الرحمن. أرجو إليه أن يأخذ يدي من مهالك الفقدان بلطائف الوجدان، فإنّه تعالى غياث كلّ مستغيث، وأمان كلّ خائف ومأوى كلّ عارف. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا شفيع المذنِبِيْن، وخاتم النبيين محمد المصطفى، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

(1) ذكر هذه الأبيات السراج القاري جعفر بن أحمد بن الحسين السراج في كتابه مصارع العشاق على لسان أحد العاشقين. (الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي، أبو ظبي).

(2) لم أعثر على قائل هذين البيتين.

لوامع التوحيد

تأليف

الشيخ أبي محمد روزبهان البقلي الشيرازي

المتوفى ٦٠٦هـ

ضبطه وصححه وعلق عليه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة]

الحمد لله الذي في بحار جبروته غرقت أرواح المرسلين، وفي أنوار ملكوته، أُحْرِقت قلوب المقربين، وفي سُبحات صفاتِهِ، تلاشت عقول العارفين، وفي سناء سطوات ذاته فنيت أسرار الموحدين، بجلال عزه، تجلى لعقول المستهترين، وبجمال قدسه، أظهر في مرآة سر الموحدين، الذي قَبْل الأزل بوصف الألوهية، موجود، وبَعْد الأبد بنعت الصمدية محمود. تلاشى أزل الآزال في أوّليته، وتصرَّم أبد الآباد في آخريته. ليس في كُنه قدمه للأرواح مجال، وليس في وصف بقائه للأشباح مقال أبدع الزمان وليس لصفاته بدوٌ معدود، ولا أجل معدود.

وفطر المكان وليس لذاته حد محدود، ولا محل موجود. رسوم الحدثان في جناب عزّته مندرسة، وفهوم الإنسان في سرادق عظمته منطمسة. لم يزل ملتبسًا بأنوار الكبرياء، ولا يزال موصوفاً بنعت البقاء. حجابه العزّة ورداؤه الكبرياء والعظمة. صفته النور، والنور هو القدس، والقدس هو الحقيقة، والحقيقة ممتنعة عن مطالعة الخليقة. لا يدرك حقائق صفاته بُعدُ الأفهام، ولا ينال عزة ذاته غوص الأوهام. ألسنة العارفين الواصفين في مدحة جلاله خرست، وأرباب العقول في ادراك كماله دَهشت. من أشار إليه فهو في قيد الخيال. ومَن أومى إليه، فهو عابد المثال. ليس للحدثان اتصال بقدم الرحمن، وليس في صفاته انتقال من المكان إلى المكان. والكائنات في ميادين وحدانيته عند صولجان قدرته معدومة. وأرواح المخلوقات في أسجان قضائه وقدره بنعت الفناء محبوسة. من وصَّف كُنه وجوده، فهو في مهمهة الجهالة. ومن كيّف صفاته، فهو في درك الشقاوة. ومَن ظنَّ أنه واصل، فليس له حاصل. ومن توهم أنه قريب، فهو بعيد. وكل ما أدركت العقول في أتمّ معانيها وما لاقت الفهوم في غاية ادراكها. فهو مصروف إلى الحدوثية،

مردود إلى الإنسانية. هو كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، واحد لا بتأويل عدد، قيّوم لا وراءه أمد، ما وجد الله غير الله، وما عرفه سواه. التوحيد للحق، والإقرار للخلق. ما وحّده من كيّفه، ولا أصاب من شبهه. منزه عن خواطر المشبهين، ومقدس عن اشارة الملحدين. لا يدركه الشواهد، ولا يحويه المشاهد، به يعرف الآيات، وعند كشف وجوده احترقت الرسومات، معروف في القلوب من غير رؤية الأبصار، ومكشوف في الغيوب من غير إحاطة الأسرار. انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته. واضمحلت العقول عند ما بدأ من عظمته. المعارف قطرات إلهامه أودعها أصداف الأرواح. والعقول صفائح نوره نشرها في صدور الأشباح، العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب، موصوف بالعلم الأزليّ قبل المعلومات، ليس هو بمستفاد ولا من الازدياد، ادراكه ليس بالأبصار ولا علمه بالأخبار، ﴿هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طـه: 98]. ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾[طـه: 111]، قدرته في الأشياء بلا مزاج، وصنعته للأشياء بلا علاج.

أبكى عيون السحاب على الصحارى والقفار. وانبت من دموعها ألوان البهار[1] والأزهار. ألبس الشواهد أنوار جمال حضرته، وزيّن الكون بسناء جمال قدرته. جعل قلوب أوليائه أوعية المعارف، وضع فيها اللآلي الكواشف، المتجلي بخلقه لخلقه، والظاهر في قلوبهم بكشف نور معرفته. كل شيء خاضع لعظمته، والموجودات قائمة بقدرته. خالق العباد، وساطع مهاد العالم بمساقط الأرزاق، وخفي طرق الإحراق.

فاعل لا بمعنى الحركات، وبصير قبل المبصرات. وسميع قبل المسموعات، ومتكلم بكلمات التامات. لا يوصف صفات وجوده بصفات المخلوقات، حي لا بهمهمة الأنفاس. قيوم لا يوصف بالقياس بمقامات الكائنات. وبإرادته تكوّن جميع الحركات. الظاهر لعجائب صنعه للناظرين، الباطن بجلال عزّته عن فكر المتوهمين. له الأسماء الحسنى. والنعوت العُليا، والجلال الأسمى، والثناء الأسنا، ذو الفضل العميم، والكرم القديم. بتجليه حسنت المستحسنات. وباستتاره قبحت المستقبحات. قَدمه قِدمه، ومنيته قهره ولطفه، واصبعه نفاذ قدرته ووجهه بقاؤه،

---

(1) البهار: نبت طيب الريح. قال ابن بري: هو النرجس البري (لسان العرب).

واستواه استعلاؤه، ونزوله ظهوره، مرئي لا بنعت الحدود، شاهد في جميع الموجود، في علوه دان، وفي دنوّه عال، في إشراقه منير، وفي أفعاله بصير.

خلق العرش نوراً شعشعانياً، وألبسه من أنوار عظمته لباساً رحمانياً، واستوى عليه نور هيبته، وحمله على أكتاف ملائكته، وأسبل على وجوههم حجاب عزته، ثم ضرب على أقدام عرشه سرادق عزّه وأظهر فيه رياض الأنس، وسمّاها حضيرة القدس، وطيّر فيها أرواح المصطفين من الأنبياء والمرسلين والكروبيين والروحانيين والعارفين والموحدين، وتجلى لها ببهجة سنائه، وبهاء جماله، وكشف لها من حق السرمدية، وحقيقة الأزلية، فتنعّمت بمشاهدته، واستأنست بقربته، وتحيرت في جبروته، وطارت في ملكوته، وأسقاها من شراب ألفته بكأس البسط، وأرواها من سلسبيل الأنس. فولهت من سرور انبساطه، ودهشت من لذائذ لقائه. فأنشقها نسيم عبهر جلاله، وأنكفها في حجر وصاله، وتلطف عليها بغرائب كشف الصفات، وأسمعها عجائب خطاب الخاص بنعت سقوط الاحتشام ورسم المقامات.

وصلى الله على محمد عبده وأمينه ، وصفيّه وحبيبه، الذي خصّ من سائر الأنبياء بالمقام المحمود، والكشف في السجود، واصطفاه على المرسلين، وجعله رحمة للعالمين، أرسله إلى كافة الخلق لتبليغ رسالة الحق، دينه مشهور وعلمه مأثور، اختاره الله من شجرة الأنبياء وصيّره مشكاة الضياء، وجهه جلالي، ونفسه مطمئنة، وعقله روحاني، وعلمه ألوهي، وفهمه ملكوتي. شرح الله صدره بنور الصفات، وكشف له جلال عزّ الذات، أبصر الحق بعين العيان بلا رسم الإنسان، وزحمة الحدثان، سراج آدم من نوره أسرج، ونور الأنبياء من سراجه، أخرج، برج اهتزازه في فلك التجريد، وسير صفاته في عالم التوحيد، طلع بدره من غمامة الكرامة، وأشرقت شمسه من ناحية التهامة، ألبسهُ الله تعالى خلقه، وأنقذ من ورطة الضلال بنور خُلقه. روحهُ مرآةُ الغيب، وشخصه مزيل الريب، ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: 72] مفخرة، و﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: 43] مخبره.

كان نبيّا في درج الأسرار وآدم بين الصلصال كالفخار، الأول في القربة، والآخر في النبوة، والظاهر بالمعرفة، والباطن بالحقيقة. تفاخرت الأزمان بدهره، امتلأت أصداف الحكم من بحز، ولوح المحفوظ سطور، تحيرت أفهام العلماء في إشارته. واضمحلت أوهام الحكماء في عبارته. تجلى الحق - سبحانه - منه ببدايع

الآيات، وبرز من صفاته بحقائق الصفات. هو لسان الحقائق، ومبيّن الدقايق، مبين في الكاينات ومبين في إظهار الآيات. سيّد البريّات، ومفسر الغامضات. شمس الخافقين، وقمر الكونين. رئيس الأنبياء، وقدوة الأتقياء. صاحب الحرم، والركن السليم. بقدومه انكسرت الأصنام، ومن ظهوره رسخت الأحكام. هو الهمام، وسننه الإسلام. حمام برج الملكوت، وطاوس حضرت الجبروت. سراج الأزمان، ورسول الرحمن، نبي الرحمة، وإمام الأمّة، رياض الأنس مرتعه، وحضيرة القدس مربعهُ، صاحب وطنات اليقين، وصادق في المقام الأمين طراز شعر معارف الأنبياء، ومرآة كواشف الأولياء، عرش المجيد مركبه، وحسن الشهود مشربه.

كان ورق الآيات قبل خلق الأرض والسموات، أنواره مراكب أفكاره، وأفكاره رواحل أسراره. ما اشتغلته الكاينات من برخأ قبضه في مقامات الفناء، وتزيّنت البريّات من نور بسطه في مقام البقاء. أخلاقه شواهد الصفات، وأشواقه نيران الأزليات. عندليب سرّه ترنّم من بساتين الغيوب، وأغار بطيب نغمته على أسرار القلوب. وصفه في صحف موسى، ونعته في نعت عيسى. إشراق شموس عجائب قلبه من نور الإلهية، وأنوار أقمار أسراره من سناء الصمدية. في خيام الملكوت مجالس أنسه، وفي سرادق الجبروت مقام قربه. دنا بالوصال وتدلّى برؤية الجمال، علا قلبه فوق الكونين، وسما سرُه قاب قوسين، قرب من وراء الوراء، وأخلا من سرِّه في سرّه سدرة المنتهى. ما ضلّ في نكرة النكرة، وما غوى سرّه عن حقيقة المعرفة، ما كذب عن سرٍّ في رؤية عيان العيان، إذ رأى ببصره مشاهدة جمال الرحمن، وما زاغ سرّه عن عين العين بنعت الالتفات إلى الأكوان، جاوز الكونين، وغاب عن الثقلين، وغمض العين من الأين. ولم يبق له رين. طلع نجمه من بطنان غيب الغيب، بلا غين الريب، وسار في سماء اليقين، وجاوز المقام الأمين، بان نوره من مشرق كان ونور البيان والعيان، وقطع الزمان والمكان، وبلغ جناب الربوبيّة. وسلخ من رسم الحدوثيّة، تعرّض بصرف سرّه بين قوام أنوار الأزال وحجاب أسرار الآباد في سرادق العظمة لاستنشاق نفحات المشاهدة حيران الحقيقة وسكران القربة. انكشف له سناء الصفات بلا رسم الآيات. فبدايته لوائح التجلي وإرادته لوامع التدلي. تراكم عليه طوارق أسرار المكاشفة، وانكشفت له أنوار المشاهدة، فقربه الحق منه به إليه، وأحضره لديه، ورفع عنه حجاب إلهيّته، وأسمعه أصوات الوصلة، وأمنه منه، وأفنا عنه، وأذاقه حلاوة رحيق الرجاء من كأس البسط،

وآنسه برائحة ورد الصفاء، وألبسه قباء البقا، وتوّجه بتاج المعرفة، وحلاه بحلية المحبّة، وسقاه شراب الشوق، وطيبه بلذائذ العشق، وأجلسه بساط الانبساط، وتغمده بنور الصفات، وأراه جمال جلال الذات. فطاب سرُّه، وغاب في نور نوره. وهاج في بيداء وحدانيّته شوقه، وتلهّب في أنوار كبريائه عشقه، حتّى صار بلا رسم الشوق ونعت العشق. واستنار بنور القدس وغاب في رياض الأنس. فألبسه الله أنانيّته وكساه وحدانيّته. فصار هو هو بلا هو. فغسل غبار العبوديّة عن جمال الحريّة، ودخل في دائرة الدائرة. وتحيّر في نقطة النقطة، هو في الغيب غيب، غاب عن الغيب بالغيب. اتحد في محو المحو، وتوحّد في الصحو الصحو. وسكن في عين الجمع، وخرج بنعت الجمع من جمع الجمع. هو مرآة المراد، تجلى الحقّ منه للعباد. فيا عجباً من كماله، وواحزناً من جماله، وواشوقاً إلى لقائه، طوبى لأحبّائه، وطوبى لأوليائه، طوبى لهم وحسن مآب.

[الشروع في الكتاب]

أمّا بعد، فإن أقصى العلوم ومنتهى المعلوم شوف أسرار التوحيد، ووضوح أنوار التفريد، وبصفاء الجلاليّة تلاشت أكدار الخليقة، وبسناء انكشافه استقرّت الأسرار في أقطار المعرفة، وللتوحيد بداية، **وليس للتوحيد نهاية لأنّ حقيقة التوحيد صفة الموحّد، ولا غاية له من جميع الوجوه.**

أما بداية التوحيد، فلها مقدمات، وهي على نوعين: الأوّل هو المقامات، والثاني هو الحالات. ويندرج تحت المقامات حسن الإنابة والتهاب نيران الحزن بنعت تصفية الصفة ونور الورع وحقيقة الزهد والفقر والقناعة والشكر والتوكّل والرضا والتسليم والصدق والإخلاص والإحسان والعبوديّة والحريّة. ويدخل تحت الحالات والمراقبة والخوف والرجاء والمحبّة والشوق والعشق والقربة وحسن اليقين وذوق الطمأنينة.

فهذه المنازل مدارج بدايات التوحيد، ومن لم يَعبرُ بها لم يشم رائحة التوحيد، لأنّ المقامات مراكب القلوب تسير بها درجات المكاشفات. والحالاتُ رواحل الأرواح تبلغ بها إلى وطنات المشاهدات. وهذه المقدمة لا تكن إلا بعد أن يستنير عقل الكلّ بلوائح كشف أنوار الحقّ - سبحانه وتعالى - التي سماها الإسلام، كما قال - عزّ اسمه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22] وهذا النور هو الذي فطر الله تعالى العباد عليه بإشارته - سبحانه وتعالى -: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. وقال - عليه السلام: «**كلّ مولود يولَد على الفطرة**»[1].

فإذا أنار العقل بنور الغيب، وصل نوره نور الروح فاتّحدا، فصارا نوراً واحداً، فانجلت به عينُ القلب، وأبصر بنور العقل أنوار الشواهد، فتيقن بها وجود المشهود بنعت العلم، ورأى الروح بنور الغيب الذي كشف العقل بنور الصفات، فتحققت به

(1) رواه البخاري في صحيحه، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (1319) [1/ 465] ورواه مسلم في صحيحه، باب معنى كل مولود يولد. . .، حديث رقم (2658) [4/ 2047] ورواه غيرهما.

جمال الذاتِ بنعت المعرفة. فهذا أوّل مقامات بدايات التوحيد، ومن ههنا سير العباد في عالم الغيب.

أمّا بداية حقيقة التوحيد بعد هذه المقدمات، فهي عشرة مراتب: الفكر، الذكر، الحكمة، الحياء، الجمع، التفرقة، التمكين، التلوين، المكاشفة والمشاهدة. وهذه المراتب في جملتها من قبيل المعرفة والمعرفة أعلى الرتبات منها، وعليها مدار جميع ما ذكرنا، والوصول إلى درجة التوحيد بغير هذه المراتب محال، لأن بالمعرفة ينال أسرار التوحيد، وبسراجه ترى حقائق التجريد.

أمّا **الفكر** من مقام المعرفة، فهو تقدّس العقل في الآيات لاقتباس «أنوار الصفات. وهذا من تنفس صبح المعارف في قلوب العارفين في أوّل وقائع المعرفة، وهو مرقاة الروح يرتقي فيها إلى مطالع التوحيد، ومنهج العقل إلى طوالع المعرفة بوصف التفريد.

وأمّا **الذكر** من مقام المعرفة: فهو سناء كشف قرب المذكور في قلب العارفِ، وهذا من آثار ضياء التوحيد.

وأمّا **الحكمة** من مقام المعرفة: فهي بروز نور أفعال الحقّ - سبحانه وتعالى - بنعت ظهور الفاعل بوسائط الفعل، ويعرف حقائق الشهود بمعرفة على المشهود، وهذا من مدارج التوحيد.

وأمّا **الحياء** من مقام المعرفة. فهو مستفاد الروح من ذوبان القلب من إجلال الحقّ - سبحانه وتعالى - وهذا من اطلاع سرّ الروح على جمال الحضرة. وهذه المنزلة قريبة من الفناء في التوحيد.

وأمّا **التلوين** من مقام المعرفة. فهو استغراق الروح في تلاطم بحار الحيرة بطلب مراصع لآليء المعرفة، واحتراق العقل في نيران سبحات الوصلة لاقتباس نفايس جواهر القربة. وهذا أوّل مشرب التوحيد.

وأمّا **التمكين** من مقام المعرفة: فهو سكران السرّ بلقاء المحبوب بنعت الفرح من اجتماع معاني الصحو في القلب. وهذا من شرط الانبساط في مقام تجريد التوحيد.

وأمّا **التفرقة** من مقام المعرفة: فهي تفرقة سرّ علم الروح في سطوات القدوسيّة ولطمات بحر الربوبية. وهذا من شرط المعرفة ورسم التوحيد.

وأمّا **الجمع** من مقام المعرفة: فهو تمكين في عين الجمع، وعين الجمع قنطرة بحر التوحيد.

وأما **المكاشفة** من مقام المعرفة: فهي مقام كنوز لطائف أنوار التوحيد الذي بها يعرف الحقّ بنعت القدم ورؤية القدم بنفي العدم وهذا من حقائق حقّ التوحيد.

وأمّا **المشاهدة** من مقام المعرفة: فهي مشرع علوم الحقيقة، واطلاع الروح على منثور أنوار السرّ بعين الصفة. ومن ههنا يبلغُ العارف إلى مقام البقاء، والبقاء سرّ الاتّحاد، وصرف الإنابة. وهذا غاية علم التوحيد. وبدايات التجريد بنعت تفصيل المعارف ارشادًا إلى سرّ التوحيد.

وأمّا **أصل التوحيد: فهو على عشرة أقسام**: القسم الأوّل القبض، الثاني البسط، الثالث السكر، الرابع الصحو، الخامس الفناء، السادس البقاء، السابع الانبساط، الثامن الاتّحاد، التاسع الاستقامة، العاشر السرّ.

أمّا **القبض** فيكون للموحّد من رؤية مشاهدة عظمة الحقّ في قلبه. وهذا من أوّل الاصطلام وبداية المَحْق وسرّ المحق. وليس في مقام التوحيد أشدّ مقاما من مقام القبض، لأنّ في القبض ذوب الأرواح من حدة قدس الصفة، وحبس الأشباح في أسجان الهيبة.

وأمّا **البسط** فيكون في الموحّد من وجدان القلب مشاهدة قدس القدس بنعت التربية، وعرفان الروح مشاهدة أنس الأنس بنعت الوصلة. وهذا مقام الأنس للأرواح القدسيّة، وهو أوّل درجة الدنو.

وأمّا **السكر** فيكون في الموحّد من اطلاع روحه على مشاهدة جمال ذات الحقّ - سبحانه وتعالى - بوصف حلاوة المحبّة ونعت الحيرة. وهذا أيضاً من أنس الروح بجلال الديموميّة، وهو عقبة من سرّ الأنانيّة وحقيقة الوحدانيّة.

وأمّا **الصحو**: فيكون للموحّد من بلوغه عين الجمع، وادراكه حقيقة عين العين بعين العين. وهذا من مقام التوحيد حقيقة محو العبوديّة في الربوبيّة واستيلاء الربوبيّة على العبوديّة، والخروج من رسم الربوبيّة والعبودية بنعت سكون روح الروح في عشق العشق من ادراك سرّ السرّ.

وأمّا **الفناء**: فيكون في الموحّد من رؤية العزّ السرمدي والكبرياء الأبديّ،

واستغراق السرّ في بحر أنوار الهويّة وسبحات صفات الصمديّة. وهذا من كثرة مطالعة الروح حقيقة وجود الحقّ - جلّ سلطانه.

وأمّا **البقاء**: فيكون في الموحّد من دخوله في غيب غيب سرّ سرّ معرفة حقيقة الذات وعجائب الصفات بنعت خروجه من براهين شواهد الربوبيّة ورسوم الحدوثيّة.

وأمّا **الانبساط**. فيكون في الموحّد من تلبّس روح الحدوثيّة بروح القدميّة، ونشاط وجدان الربوبيّة في العبوديّة بإسقاط الرسومات وادراك حسن الصفة بحسن الصفة. وهذا المقام من التوحيد بحر صفاء الوجد وسناء سرّ الوقت بنعت المدانات، وذوب القلب من جرأة الروح وتقريرها مع الحقّ بالحقّ من الحقّ إلى الحقّ.

وأمّا **الاتحاد**: فيكون في الموحّد من غيبة الروح في ضباب العظمة وفقدانها صفة الحدث من استيلاء نور القدم على سرّ السرّ ورؤيتها صرف الوحدانيّة في مرآة الإنسانيّة بعين الحقّ إلى الحقّ. وهذا من سرّ التوحيد مسحة من نور الأحديّة في عين سرّ روح المقدّسة، وبها ترى عين الجمع وصرف المعرفة ومحو الصفة في الصفة.

وأمّا **الاستقامة**: فيكون في الموحّد من خروجه عن رسم القضاء والقدر من صورة العلم، ومن شرائط القهريّات والمكريّات ومن لطائف المقامات وكرائم الحالات ومن دخوله بنعت الفناء في سناء الصفات، وطلوعه بنعت البقاء من مشارق أنوار الذات، ملتبسا بسرّ الأزل، منوّرا بنور الأبديّة. وهذا من أسرار التوحيد الاستقامة في معرفة حقيقة الحقّ بلا نكرة الخلق عن المحو عن الطرف والصحو من الكشف.

وأمّا **السرّ**: فيكون في الموحّد من انكشاف أنوار ذات الحقّ - سبحانه - لبصيرة سرّه ومن اطلاع روحه على إجلال صفات اللّه تعالى حين أطلعه الحقّ على عجائب أسرار نفسه - جلّ اسمه -، ومقام السرّ في حقيقة التوحيد آخر درجة في العبوديّة وأوّل درجة في الربوبيّة. ومن لم يبلغ مقام السرّ لم يعرف العبوديّة من الربوبيّة، في حقيقة الاتّحاد، لا من شرط الاتّحاد دعوى الأنانيّة، ومن شرط وجدان سرّ التوحيد خمود دعوى الربوبيّة، وإفراد الواحد بالواحد بنعت فرق القدم من الحدث.

وليس بعد مقام السرّ مقام لأنّ منتهى كلّ مقام أوّل درجة الحال، وآخر درجة الحال أوّل مقام المعرفة، وآخر مقام المعرفة أوّل مقام التوحيد، وآخر مقام التوحيد

أوّل مقام السرّ. وللموحّد في درجة السرّ ألف مقام، أوّلها معرفة وآخرها نكرة، كما قال العالم الغريب أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج - قدّس الله روحه العزيز - : «المعرفة في ضمن النكرة مخفية، والنكرة في ضمن العرفة مخفيّة».

واعلم أنّ سبل أسرار التوحيد منطمسة على أكثر السالكين، لأنّ طوارق حقائق التوحيد تطلع من طوالع القدم، والخلق محجوبون عنها برسم الحوادث والعوائق. وأسرار التوحيد، لا يعرفها إلا من غير وراء الوراء، ووراء الوراء أبصر الحقّ بأنوار عزّته وسناء معرفته.

وللتوحيد رسم واسم، ونور وسرّ.

أمّا رسم التوحيد فمعرفة العقل أسماء الله - تعالى - ونعوته وعلماً ورسماً. وهذا بعد جولان العقل في الكائنات لطلب عرفان الصفات بشواهد الآيات اثباتًا للوحدانيّة واقرارًا بالربوبيّة.

وأمّا اسم التوحيد فمعرفة القلب تنزيه صفات الحقّ وتقديس ذاته بنفي الأنداد والأضداد والأمثال والأشباه والتصوير والتخييل والتكييف والتمثيل. وهذا بعد تخلية القلب عن الشكّ والشرك والرين والريب والجهل والكفر وتنوره بنور الإيمان وصفاء البرهان.

وأمّا نور التوحيد فمعرفة الروح لوائح تجلي خصائص الصفات الخاصّ وكشف لوامع بروز نور قرب القرب من سبحات العظمة وسطوات العزّة. وهذا بعد سير الروح في الجبروت وخروجها من عالم الملكوت وفنائها في علم البقاء وبقائها بعد فنائها عن الفناء.

وأمّا سرّ التوحيد على وفق ما ذكرنا في بداية السرّ، فإدراك سرّ الموحّد صرف مشاهدة الحقّ - جلّ وعزّ - بلا رسم الالتباس ونعت الأشخاص، بل رؤية الصفة بالصفة ورؤية الذات بالذات، ورؤية النور بالنور، ورؤية السرّ بالسرّ، ورؤية الهويّة بالهويّة، ورؤية الصمديّة بالصمديّة، ورؤية الوحدانيّة بالوحدانيّة، ورؤية الفردانيّة بالفردانيّة، ورؤية العزّة بالعزّة، ورؤية الهيبة بالهيبة، ورؤية الكبرياء بالكبرياء، ورؤية القدم بالقدم، ورؤية البقاء بالبقاء ورؤية الديموميّة بالديموميّة.

ثم قرب عقل الكلّ من جناب الربوبيّة. ثمّ قرب قلب الروحاني من سرادق السلطانية. ثمّ قرب روح القدسيّة من حجاب العزّة. ثمّ قرب السرّ من حقيقة الجمال والجلال والكمال والضياء والبهاء. ثمّ قرب القرب، ثمّ دنوُّ الدنوّ، ثمّ المحو، ثمّ

المحق، ثمّ الاحتراق، ثمّ الطمس ثمّ الرمس، ثمّ الفناء، ثمّ فناء الفناء، فإلى ههنا يأتي علم الحقائق.

ثمّ بعد ذلك الحيرة، ثمّ الغيرة، ثمّ المنّة، ثمّ الدهشة، ثمّ الوَلَه، ثمّ الهيمان، ثمّ الهيجان، ثمّ هيجان لذائذ الأنس، ثمّ الاستقامة في تجلي قدس القدس، ثمّ بسط البسط، ثمّ تبديل العشق الأفعالي بالعشق الصفاتي، ثمّ صحو السرّ في مشاهدة الكلّيّة، ثمّ انبساط العاشق، ثمّ انبساط الحقّ، ثمّ قرب الصفة من الصفة، ثمّ معرفة خلق الحقّ، ثمّ بعلمه، ثمّ بخطابه، ثمّ بحسن جلاله، ثمّ بسرّه، ثمّ بصفاته، ثمّ بحقيقة ذاته بنعت الحيرة وزوال الفكر. وليس بعد ذلك تحصيل المعرفة إلا عرفان السرّ أسرار وجود الحقّ - جلّ وعزّ.

ثمّ فناء السرّ في سرّه، ثمّ حصول العلم المجهول، ثمّ صرف الأنانيّة للعارف، وهو التلبيس، ثمّ الالتباس الخاصّ، وهو الخدعة، ثمّ معرفة جمع الوجود، وهو المكرُ، ثمّ ظهور أنوار القدم، ثمّ بروز أسرار الأبد، ثمّ السبحات، ثمّ السطوات، ثمّ الوصلة، ثمّ اللطمة، ثمّ المعرفة بالنكرة، ثمّ النكرة في المعرفة، ثمّ فناء المعرفة والنكرة، ثمّ انقطاع العارف من المعروف، ثمّ اتصال المعروف بالعارف، وليس هناك انقطاع ولا اتصال ولا انفصال ولا ابتداء ولا انتهاء ولا كيف ولا حيث ولا أين ولا قبل، ولا بعد إلا بعد وجود سرمد، وعزّ قديم. إلى ههنا بلغ علم المعرفة.

ثمّ بعد ذلك، تلاشي العالم والعلم في كنه ذات الحقّ - سبحانه وتعالى، وليس وراء ذلك إلا كشوف الأنوار، وظهور خصائص الأسرار، وبروز الحقيقة وحقيقة الحقيقة وحقّ الحقيقة، ولا يتهيأ لسرّ الفرد عن عين الفردانيّة للفرد من ادراك حقّ حقيقة الحقّ بنعت العلم، إلا برؤية مشاهدة عجائب حقيقة الحقّ ولقاء مكاشفة غرائب حقّ الحقيقة، إلا إنّه بعد ذلك مع كلّ مشاهدة مكاشفة، ومع كلّ مكاشفة مشاهدة، ومع كلّ مشاهدة ومكاشفة سرّ، ومع كل سرّ من علوم المجهولة التي لا تدركها الأفهام، ولا يبلغها الأوهام. بل لذلك خبر عند أهل الخبر وغيب عند أهل الغيب. وسيّد أهل الخبر ورئيس أهل الغيب محمّد - صلى الله عليه وسلّم - الذي بلغ بنعت المعرفة حقيقة النكرة، فقال ﷺ: **«أنت كما أثنيتَ على نفسك»**[1].

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

ما بان نور من غيب الغيب إلا ظهر في مصباح سرّه، وما ضلّ برسم الحوادث عن منهاج وصلة في مدارج الربوبيّة ورأى حقيقة المشاهدة، وغاب في الوصلة، وطاب من جمال الحقيقة بحار أسرار معرفته لا يساحلُ، ومجالس أنوار أنسه لا يحافلُ، مع جلالته أخبر عن سرّ التوحيد من حيث حاله مع الحقّ لا من حيث حال الحقّ معه بأنّ التوحيد صفة الموحِّد لا صفة الموحَد، والتوحيد والموحِّدُ واحد من جميع الوجوه.

ومن أشار إلى التوحيد بلسان الإنسانيّة فهو بالحقيقة مشبهيّ، ومن ادّعى أن التوحيد صفةُ الحدوثيّة فهو ثنويّ. قال الجنيد - رحمة الله عليه: «العلم جحود، والمعرفة إنكار، والتوحيد إلحاد». وقال رجل للشبلي - رحمه الله - واسمه دلف بن جحدر: «يا أبا بكر أخبرني عن التوحيد المجرّد بلسان حقّ مفرّد»، فقال: «ويحك من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو ملحد، ومن أشار إليه فهو ثنويّ، ومن أومى إليه فهو عابد وثن، ومن نطق فيه فهو غافل، ومن سكت عنه فهو جاهل، ومن أوهم إنّه واصل فليس له حاصل، ومن أومى إنّه قريب فهو بعيد، ومن تواجد فهو فاقد، وكلّ ما ميّزتُموُهُ بأوهامكم وأدركتُموه بعقولكُم في أتمّ معانيكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم». وقال آخر: «ليس في التوحيد خلق وما وجد اللّه غير اللّه والتوحيد للحقّ، والخلق طفيل». وسئل الجنيد - رحمنه اللّه - عن التوحيد، فقال: «معنى يضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم، ويكون اللّه كما لم يزل».

وقال العالم الغريب الحسين بن منصور الحلاج - رحمه اللّه - في وصف المعرفة: «المعرفة عن الأفهام غايبة وباينة، وحقيقتها عن العقول مستترة. ومن قال: عرفته بفقدي، فالمفقود كيف يعرف الموجود؟ ومن قال: عرفته بوجودي، فالقديمان لا يكونان، ومن قال: عرفه حين جهله، فالجهل حجاب والمعرفة وراء الحجاب، ومن قال: بالاسم، والاسم لا يفارق المسمى أو من قال: عرفتُه به، فقد أشار إلى معروفين، ومن قال: عرفته بالعجز، فالعاجز منقطع، والمنقطع كيف يدرك المعروف؟ ومن قال: عرفني فعرفتُه، فقد أشار إلى العلم، والعلم لا يفارق الذات، ومن فارق الذات كيف يدرِكُ الذات؟ ومن قال: عرفته بتعريفه، فالمعروف شيء واحد لا يتجزأ ولا يتبعّضُ، ومن قال: المعروف عرف نفسه فقد أقرَّ بأنّ العارف في البين متكلّف لأنّ المعروف لم يزل. كان عارفاً بنفسه، يا عجباً من لا يعرفُ شعرة من بدنه كيف نبت سوداء أم بيضاء، كيف يعرف مكنون الأشياء؟ وكيف يعرفُ مكنون سرّ اللّه - عزّ وجلّ؟ فمن لا يعرف المجمل والمفصل، ولا يعرف الآخر

والأوّل، والتصاريف والعلل والحقائق، والجبل لا يصح له معرفة من لم يزل، سبحان من حجبهم بالاسم والرسم والوسم، حجبهم بالقال والحال عن الذي لم يزل ولا يزال» - قدّس الله روحَه ما أحسن مقالته في علم المعرفة والتوحيد، بارك اللّه في حياته ومماته.

وإذا كان أسرار التوحيد وحقيقة المعرفة بهذه المثابة، فعلمنا أن حقيقة التوحيد لا سبيل للخلق إليها من جميع المعاني، وهم من إدراكها ومعرفتها في رسم الأماني، لأنّ طريقها منطمسةً، ورسوم أقطارها مندرسة، ومنزلها صعب، ومركبها وَعر. وتلاشت أسرار الأنبياء في أنوارها، وذابت أرواح الأولياء في سطواتها، وفنيت عقول المقربين في أسرارها، واحترقت قلوب الصديقين في نيرانها، فحجبهم الحق باسمها ورسمها عن غوامضها، وأخبر عن عجز معرفتهم في وحدانيّته، وتحيّر عقولهم في فردانيّته، فقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91]. ومن حيث الحقيقة لا يجوز لابن آدم أن يدعي معرفة حقيقة الحقّ - جلّ وعلا - لأن أبوهم صفيه - عليه الصلاة والسلام - مع درجة الاصطفاء والاجتباء. وإنّ اللّه تعالى نفخ فيه من روحه، وخلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكن جنته فقد زلّ قدمه عن صفوان الامتحان الذي هو حق العبوديّة ومعرفة الربوبيّة التي هي من وسائط التوحيد. وكان معترفاً بعجزه عن أداء ما وجب عليه من حق العبوديّة، وكان معترفاً بقوله: ربنا ظلمنا أنفسنا.

وكذلك خليل اللّه - عليه السلام - عجز عن معرفة حقائق أفعال الحق - سبحانه وتعالى - حيث قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: 260] فاعترف باضطراب قلبه وقلة طمأنينته في معرفة حقائق القدرة.

وكذلك كليم اللّه ونجيّه - عليه السلام - لم يطق أن يستقرّ في أوّل باد بداء من أنوار مشاهدة الحق - جلّ جلاله - وخرّ من صعقة سلطان الوحدانيّة، فلما أفاق اعترف بعجزه أن يحتمل ذرةً من نور التوحيد ومشاهدة الموحّد. فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: 143].

وكذلك روح اللّه وكلمته - عليه السلام - مع معرفة ربّه اعترف بعجزه عن ادراك حقيقة ذات الحق وصفاته وأسرار علمه في نفسه، حيث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: 116].

وكذلك حبيبه وصفيه وخير خلقه محمد صاحب المناهج الكبرى وغرض العرش والثرى، خاتم الأنبياء، ورئيس الأولياء - صلوات اللّه وسلامه عليه - اعترف

مع كماله بعجزه عن معرفة حقيقة الوحدانيّة والأنانيّة في حضرة العزّة، حيث قال: «لا أُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك».

وكذا ينبغي، ما للتراب وربّ الأرباب. واعتراف الملائكة مع قربهم بين يدي اللّه تعالى بالعجز عن معرفته، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. لكنّ اللّه مَنَّ على أنبيائه وأوليائه وأصفيائه بكشف مشاهدته لهم وانبساطه بنعت التلطّف إليهم، وأتحفهم باطلاعهم على مكنونات الغيب وعجائب أسرار غيب الغيب، وبصّرهم على ما في الملكوت من أنوار الجبروت، وما غاب عن أبصار الخلق من غرائب غيب السموات والأرض وأسرار الملك والمملكة مثل العرش والكرسيّ وحجاب النور وحضائر القدس والفردوس الأعلى وجنّة الماوى وشجرة طوبى وسدرة المنتهى وأرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والأصفياء وصنوف الملائكة والقيمة وأموالها وأحوالها، وجميع الجنان ونعيمها من السلسبيل والزنجبيل والحور القصور وجميع الجحيم ونيرانها وعذابها وسلاسلها وأغلالها وحياتها وعقاربها وعجائبها التي خلق اللّه تعالى فيها، وأيضاً خزنتها ومالكها وزبانيتها وأراهم أيضاً اللوح المحفوظ وأسماء السعداء والأشقياء وما كتب فيه من أسرار القضاء والقدر.

وهذه العجائب من أحكام الغيوب لا يطلع عليها إلا أهل القلوب من النبيّين والصديقين. قال اللّه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: 26-27] ومن تلك المكاشفة ما وصف حارثة للنبيّ[1] - صلى اللّه عليه وسلم - حين قال: «كأني أنظر إلى عرش ربّي، وكأنّي وكأنّي». وافهم أنّ غيبَ الله تعالى على ثلاثة أقسام، منها غيب العام، وقسم منها غيب الخاصّ، وقسم منها غيب خاصّ الخاصّ.

وأما **غيب العام**، فهو ما ذكرنا من أحوال الآخرة مثل الجنّة والنار والملكوت والعرش والكرسيّ والأنوار وحجاب الحضرة وأرواح المقربين والأنبياء والعارفين.

(1) رواه الطبراني في المعجم الحارث بن مالك الأنصاري، حديث رقم (3367) [3/ 266] ورواه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (10590) [7/ 362] ورواه غيرهما ونصه: عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت يا حارث قال مؤمنًا حقًا فقال انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال قد عزفت نفسي عن الدنيا وأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثًا.

وهذا ظاهر الغيب لأنّ اللّه تعالى ذكر في كتابه الكريم ظاهر الغيب في مواضع كثيرة مثل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [مريم: 61]. والإنباء عنها ظاهر الغيب الذي يذبّ الخلق إلى الإيمان به. قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3]، أي يصدقون ظاهر أحكام الغيب، لأنّ هذه الأحكام في علم الغيب ظاهر الغيب، واللّه تعالى دعا الخلق إلى الإيمان بظاهر الغيب، لأنّ غيب الغيب مكشفُ ظاهر الغيب. وفي ذلك محال قلوب أهل المكاشفة والفراسة وظاهر الغيب لأنّ ظاهر الإيمان ظاهر الغيب، وحقيقة الإيمان باطن الغيب. فظاهر الإيمان ادبّوا إلى تصديق أحكام الغيب الذي ذكرنا هو غيب العام.

ولظاهر هذا الغيب غيب أعني غيب العام، ولذلك الغيب غيب، ولذلك الغيب سرّ، ولذلك السرّ سرّ، ولسرّ السرّ علم، وللعلم خبر.

أمّا غيب غيب العام فالوقوف على أسرار الكشوف، وأمّا غيب غيب الظاهر فاطلاع الروح على أشكال المغيبات حتى يبرز بألوان اللباس. وهذا مما أخفى اللّه تعالى لأصفيائه وأوليائه. قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ [السجدة: 17] فالخفيّ من هذه المغيبات، ما هو غائب عن الخليقة. قال - عليه السلام: «إن في الجنّة ما لا عين رأت لا أذن سَمِعت ولا خطر على قلب بشر».

فذلك إشارة إلى باطن غيب غيب الغيب، وسرّ ذلك الغيب معرفة أحكام صفات الغيب، وسرّ السرّ رؤية الخالق في أنوار سرّ سرّ غيب غيب الغيب، وعلم سرّ السرّ تحصيل الروح معرفة وجود الفاعل بوسائط الفعل، وخبر ذلك العلم بروز آثارها حصل في المعارف من المعروف بوسائط المغيّبات من جميع وجود المعارف علماً وفعلاً وحالاً، هذه صفة غيب العام.

وأمّا **صفة غيب الخاصّ**، فلذلك الغيب غيب ولغيب الغيب، فهو مشاهدة الحق - سبحانه - وأيّ غيب أخفى من ذلك؟ وذلك مدارج الغيوب ومقطع سرّ سرّ القلوب، وتلك المشاهدة خُصّ بها طائفة من هذه الأمّة، وأشار بها سيّد الأنبياء - عليهم السلام - في جواب سؤال جبرئيل - عليهما السلام - قال: «أن تعبُدَ اللّه كأنّك تراه»[1]. وذلك إشارة إدراك غيب الخاص ببصيرة الخاص، وهي رؤية القلب

(1) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم: حديث رقم (50) [1/27] ورواه مسلم في صحيحه في أبواب عدة: أحدها: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (8) [1/36] ورواه غيرهما.

صرف مشاهدة الحق - جلّ وعزّ - ولولا ذلك للعارفين والموحدين والمحبين والصديقين في جميع الساعات عند حركات أنفاسهم في حقيقة المراقبات لطلب مشاهدة الذات والصفات، لماتوا جميعاً في لحظة واحدة، كما حكى عن أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - إنّه قال: «إنّ للّه عبادًا جعل من ذاته إلى قلوبهم إلى ذاته طريقاً، فهو ينظر إلى قلوبهم وهم ينظرون بعين قلوبهم إليه، فلو أنهم حجبوا ساعة لماتوا».

وأما **غيب خاصّ الخاصّ** فهو رؤية وجوده بنعت تحصيل المحبة والشوق والعشق، وأما غيب غيب الخاصّ، فهو بعد إدراك المشاهدة البلوغ إلى قرب القرب. وسرّ ذلك الغيب، دنّو الدنوّ، وبذلك أشار الحق في شأن حبيبه - عليه السلام - قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: 8-9]. القوس الأولى قرب القرب بنعت الفناء، والقوس الأخرى دنوّ الدنوّ بنعت البقاء. وسرّ ذلك وجدان السكر بعد ادراك الانبساط، وعلم ذلك السرّ بأخلاق الحق، وخير ذلك التخلق بخلقه، وهذا مقام سرّ الاتحاد، وهناك خرسة العارف في دعوى الأنانيّة ذكرتَ غيب الخاصّ وأسراره وبطانته.

وأما غيب غيب خاصّ الخاص، فهو معرفة خصائص صفات الحق، وذلك مباشرة التجلي جميع الصفات بالروح الناطقة وعرفان صرف الصفات بلطائف الحق - جلّ وعلا -. ولذلك الغيب غيب، وهو رؤية حقيقة الذات بعد معرفة الصفات بنعت النكرة في تحيّر التحيّر. ولذلك الغيب غيب، وهو معرفة وحدانيّة القدم بنعت العجز عن معرفة الكُنه، ولذلك الغيب سرّ، وهو حقيقة الأوّليّة، قال اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]. ولذلك السرُ سرّ، وهو حقيقة الآخريّة، قال اللّه تعالى: «هو الآخر». ولذلك السرّ علم، وهو علم ظاهر الحقيقة، قال اللّه تعالى: «هو الظاهر». ولذلك العلم غيب، وهو باطن سرّ حقيقة الحقيقة، قال اللّه تعالى: «هو الباطن». وخبر ذلك الغيب خاصّ، للّه تعالى ليس في الخلق إليه سبيل، قال اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]. وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ﴾ [الأنعام: 59].

لكن لأهل المكاشفة في هذا مشاهدة بلا علم ومشاهدة بعلم، ومشاهدة في تحيّر، وليس وراء ذلك عبارة ولا إشارة لأنّ الله تعالى استأثر لنفسه من علم غيبه حقائق أسرار القدميّة فأخفاها عن الخليقة بأمرها ظاهراً وباطناً وعلماً وخبراً وسرّاً

وغيباً، قال اللّه تعالى في علم اتيان الساعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15] لأنّ علمها من جملة أسرار نفسه، وتلك الغيوب السابقة في علومه الأوّليّة حيث لا معلوم ولا موجود، فإشارة أسرار غيوب الأزليّة من حيث كان الحق ولا شيء معه.

فكان مفرد الجميع أسباب الغيب من علمه وسرّه وغيبه قبل وجود الكون. قال اللّه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: 65] وقال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51]. وإنّما أشار علومه الخاصّة له - جلّ وعزّ - هي صرف الربوبيّة بنعت ابداع الخليقة. فهذه الأسرار والعلوم لم يطلعها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب.

ثمّ إن الله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده بأسرار عجيبة، ومكنونات لطيفة من غوامض علوم الغيب وغيب الغيب، وله ودائع أسراره في قلوب أحبائه وكنوز أسراره في صدور أصفيائه، لا يعلمها إلا هو.

وذلك علامة ولاية العارفين وآيات زلفى الصديقين، ومنها تزَهّر قلوب البدلاء، وتشرح صدور الأولياء، وبها تكون فراسة النجباء ومكاشفات الخلفاء ومن ذلك أشرفوا على على قلوب الخليقة، واطلّعوا على أسرار الآخرة. قال - عليه السلام: **«احذروا فراسة المؤمن، فإنّ المؤمن ينظر بنور الله»**[1]، والنور من أسرار اللّه تعالى. وذلك حقيقة إرشاد الحقّ لأرواح الروحانيّة ليستشرفوا على هموم الخلائق أجمعين. وروي عن أبي الحسين أخي الحسن البصري - رحمة الله عليهما - عن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - قال: «لله - عزّ وجلّ - صفوة من رتبته قسم لهم من حظوظ كل نفس، فهم مشرفون على هموم الخلائق كلهم أجمعين، وإنّ أبا بكر - رضي الله عنه - منهم».

ولكل كشف من مكاشفة أهل صفوة الحقّ سرّ لأهله، والإخبار عن ذلك تعدّي وظلم لأن لله تعالى في قلوب أنبيائه وأوليائه وعلمائه وحكمائه من خصائص أسراره ما لا خطر على قلب الخلائق أجمعين. وذلك أمانات الله تعالى أودعها إلى خاصّة أحبته من النبيين والمرسلين والمقرّبين والعارفين. وأطلعهم على بعض مكنون أسراره، وكشف لهم عن حقيقة سرّ خبره، ونبّههم لخفيّ مكتوم أنبائه. فلم يطلقوا أن ينطقوا به عند غير أهله، وأن يعبّروا به عن مشكلات دقائقه ورموز حقائقه على

(1) هذا الحديث سبق تخريجه.

أيّ وجه كانوا. ولو أظهروا بعض أسرار اللّه تعالى عند الخلق لكفروا كلهم وهؤلاء يسقطون لسبب إفشائهم عن سرّ الحق عن درجاتهم.

وروي في بعض الأخبار أن اللّه - عزّ وجلّ - علّم النبيّ - صلى اللّه وسلّم - علوماً فأمره أن لا يظهّرها لأحدٍ، وعلوما أمره أن يظهرها لأصحابه ولا يظهرها لغيرهم، ثمّ سائر العلوم أمره أن يدعو به العالم بأسرها إلى الله - عزّ وجلّ - وأباح له إظهار ذلك، لأن علم السرّ يعجز الخلائق ويشتت العقلاء عن سبُل الموسوم عن مقام المعلوم. وقد روى عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - إنه سئل عن تفسير آية، ولم يفسرها، ثمّ قال: «ما آمنك أن أفسرها لك فتكفر، قال ابن عبّاس - رضي الله عنهما -: «قلت لرسول الله - صلى اللّه عليه وسلّم -: يا رسول الله أحدّث بكل ما أسمع منك، قال: نعم إلا أن تحدثك بحديث لا يبلغ عقول القوم ذلك الحديث فيكون على بعضهم فتنة».

وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إنّه قال: «لو رجعتُ من خياركم مائة وأخذتكم من دعوة العشاء ما سمعت من فِيّ أبي القاسم - صلّى اللّه عليه وسلم - لتخرجون من عندي، وأنتم تقولون إن عليّا - رضي الله عنه - من أكذب الكاذبين وأفسق الفاسقين». وقد قال سهل بن عبد اللّه - رحمة الله عليه -: «معرفة أصول علم السرّ كفر لما دونهُ لأن سرائر العلم لا يحتمله غيرُ الأقوياء من العارفين والأبطال من المحبين الشايقين ومن الحكماء المقربين، وعلم حقائق أسرار الحقّ - سبحانه - عند العوام كفر يعجز ادراكهم». ألا ترى شأن موسى - عليه السلام - مع جلالته وقربته بين يدي اللّه تعالى عجز عن إدراك ما صنع الخضر عليه السلام في علم أسرار الإلهي الذي ذكر اللّه تعالى قال: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

وللأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء أسرار لا يظهرون إلا بأمر وحكم لأن أسرارهم متصلة بأسرار الحقّ الّتي استودعتهم، ولا يكون ذلك إلا لأمين حافظ لسرّه لا يكشفه إلا عند أهله لأن إفشاء سرّ الله عند غير أهله خيانة. كما قال - عليه السلام -: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا وحدودًا ولكل حرف مطلع»[1] ولا ينكشف فهمه إلا لأمين لا يخونه. وقد أخفى الله تعالى في قلوب أمنائه ما لا تحتمله السموات

(1) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

والأرض والبحار والجبال من أسرار غامضة وأنوار قائمة من سرّ الأزليّة ونور الصمديّة. وذلك أمانة الله تعالى الذي عرض ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

وهم لا ينطقون بذلك إلا في وقت الغلبة أو غليان القلب أو قلق الشوق، فينطقون من حدّة سكرهم عن ظاهر أسرارهم بالشطحيات، ويكشفون من جرأتهم في عين العشق أسرار الأزليات، وذلك من ضرورة السكر وغلبة الحال، فينتفع بذلك من يشاء، ويفتخر به من يشاء، لأنّهم هنالك على حكم الوقت، ليس لهم في حال الهيجان نصيبُ النفس في تجشم الآداب والترسم في الصواب.

فإذا أفاقوا لا يتهيّأ لهم أن يتكلموا بلسان الأسرار، لأن ما نطق به اللسان من علم الأسرار، فذلك موضع المخاطرة، والناطق به على شفا حفرة من الهلاك. وروي في الحديث أن النبي - عليه السلام - كان يصف مليكة ليلة أسري به، فامسك عن بعض وصفه وقال: «إلى ههنا مرت»[1]. وروي عن الحسن أنه قال: «سألت حُذيفة بن اليمان عن اللحظات»[2].

وباطن هذا العلم للمحبين، وهم أصحاب الخطرات، وسرّ هذا العلم للعارفين، وهم أصحاب الإشارات، وقيل: «لظاهر العلم حكم اللحظات ولباطن العلم حكم الخطرات، ولسرّ الباطن حكم الإشارات»، وقيل: «هلاك أهل الظاهر باللحظات وهلاك أهل الباطن بالخطرات وهلاك أهل السرّ بالإشارات». وقال الشبلي - رحمة الله عليه -: «اللحظة كفر والخطرة شرك والإشارة مكر». وقال الجنيد - رحمة الله عليه -: «إن لله تعالى عباداً يرون ما وراءهم من الأشياء، يرون أحوال الدنيا باللحظات وأحوال الآخرة بالخطرات، وأحوال ما عند الله بالإشارات».

وقيل: «اللحظة من العلم، والحضرة من الحقيقة، والإشارة من الحقّ. فاللحظة حجاب من العلم، والحضرة حجاب من الحقيقة، والإشارة حجاب من الحقّ، لأنّ العلم حجاب الحقيقة، والحقيقة حجاب الحقّ للعبد». وقال الشبلي - رحمه الله -: «العلم خبر والخبر جحود». وقال الثوري: «من علم عند المعرفة فقد أشرك». وقال الشبلي - رحمه الله -: «الخبر علم والعلم إنكار والإنكار إلحاد».

---

(1) (2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

وللعارفين بدايات ونهايات ومقامات وأسرار وأحوال، ولكلّ مقام علم، ولكلّ علم جهل، ولكلّ جهل علم، ولكلّ علم خبر، ولكلّ خبر سرّ، ولكلّ سرّ معرفة، ولكلّ معرفة نكرة، ولكل نكرة مكاشفة، ولكلّ مكاشفة مشاهدة ولكلّ مشاهدة حقيقة، ولكلّ حقيقة عزّة وعند العزّة حجاب ومكر ومانعٌ.

ولهذه الحالات والمقامات أسرار لا يطلع عليها إلا أكابر الصوفية. وقال الجنيد - رحمه الله -: «في طريق الله ألف مانع حاجز عن الله - عزّ وجلّ - ولا بدّ من الجواز عليهم». وقال أيضاً: «في الطريق ألف قصر، في كلّ قصر قاطع من قطاع الطريق موكل على المريد السالك، ولكلّ موكل مكر وغدر خلاف آخر، فإذا جاء السالك غدر الموكّل معه بشيء يغطّي به ويمنعه عن الطريق ويحجبه عن الله - عزّ وجلّ».

فافهم أن الطريق إلى الله تعالى أكثر من قطر البحار ونجوم السماء وأنفاس كلّ حيّ وذرات الكونين. وفي كلّ طريق حجاب ومانع تحجز العبد عن البلوغ إلى مراده، وذلك فإن قلوب العارفين لها تقلب وسير في عالم الملكوت والجبروت، وفي كلّ ساعة لها ألف طريق إلى الله تعالى، وفي كلّ طريق لها ألف مانع حاجز عن الله تعالى. ولذلك سأل النبي - صلى الله وسلم - من اللّه تعالى في بعض مناجاته فقال: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»[1]. وقال علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه -: من خَدم الملوك بغير علم أسلمه الجهل إلى القتل». وقال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

ثمّ إن لهم بعد الوصول إلى حقائق القرب وجوازهم عن المقامات والحالات، دركات ودرجات. فأول درجة الوصل المعرفة، ثمّ اللوامع، ثمّ اللوائح، ثمّ التجلي، ثمّ الكشف، ثمّ التدلي، ثمّ المشاهدة. ثمّ الدنّو، ثمّ قرب القرب ووصل الوصل، ثمّ الهيبة، ثمّ العلم، ثمّ التحيّر، ثم الدهشة، ثمّ البهتة، ثمّ السكر، ثمّ الصحو، ثمّ الفناء، ثمّ المعرفة، ثمّ الحياء، ثمّ البسط، ثمّ الخطاب، ثمّ الانبساط، ثمّ الاتحاد، ثمّ الأنانيّة، ثمّ العزل، ثمّ الإشارة، ثمّ العذر، ثمّ المحو، ثمّ الهلاك في التنزيه، ثمّ الفناء في الدهشة. وهذه الدركات والدرجات كلها لأهل الاستقامة.

(1) رواه الحاكم، كتاب الدعاء. . ، حديث رقم (1926) [1/ 706] ورواه الترمذي في سننه، باب ما جاء أن القلوب. . ، حديث رقم (2140) [4/ 448] ورواه غيرهما.

ولهم في كلّ خطوة وخطرة علم وبيان وبرهان ولسان وسرّ وخبر لا يعلمُها إلا العالمون بالله القائمون بأمر الله لله في الله. وقال الجنيد - رحمة الله عليه -: «الأوّل العلم، ثمّ المعرفة، ثمّ العلم بالمعرفة، ثمّ المعرفة بالعلم، ثمّ الجحود بالمعرفة، ثمّ الجحود بالإنكار، ثمّ النفي، ثمّ العدد، ثمّ الهلاك فاذان وقت النظر». فكلّ ذلك حجاب. فهذا كلّه مقامات أهل الحجاب. فكيف الوصول إلى الدار، ثمّ إلى حقيقة الأسرار؟ وقال ذو النون - رحمة الله عليه -: «في طريق المعرفة ألف علم، وعند كل علم ألف جهل ألف معرفة، وعند كلّ معرفة إنكار». وقيل «هذا الأهل الوصول».

فأما أهل المقامات من الإرادات والاشتياق والحرق، فإنّهم نازلون وساكنون بمقامهم، يتحركون من مقامامتهم، منتقلون من مقام فمن ارتكن إلى مقامه يزيل في المقام وتعلق بالمقام، ورضي به عوضاً عن القائم بالحقّ وحده - جلّ جلاله - حجب عنه بالمقام، ثمّ حجب عن المقام برؤية المقام، فمن ذلك إلى حقيقة الاستدراج لأن الاستدراج بأهل الأحوال والمقامات، والمكر لأهل القرب. وقال الشبلي - رحمه الله - : «المقامات كلّها حجاب أوْ مكر، فللقريب مكر وللبعيد حجاب». وقال الجنيد - رحمة الله عليه -: «طريق التصوّف لا يخلو من المكر لأنّهم أكيس الناس به».

ورجال مسالك الحقّ على عشرة أقسام. قسم منهم أهل الكرامات، وقسم منهم أهل المقامات، وقسم منهم أهل المنازلات، وقسم منهم أهل الدرجات، وقسم منهم أهل الحالات، وقسم منهم أهل المخاطبات، وقسم منهم أهل المكاشفات، وقسم منهم أهل المشاهدات، وقسم منهم أهل المدانات، وقسم منهم أهل الاستقامات.

وأما **أهل الكرامات**، فهم طلاّب الآخرة في المكايدات والتشمّر في المجاهدات والرياضات والعبادات. فأعطاهم الله تعالى ثمرةَ جهدهم وجُهدهم صحة الفراسات الصادقة وأخلاق الروحانيّة حتّى يصيروا بها بصفة الملكية ويسهل عليهم تقليب الأعيان وطيّ الأرض واستجابة الدعوة أمثال ذلك من الآيات والكرامات.

وأمّا **أهل المقامات**، فهم أهل سيران الخاطر في عالم الروحاني. فانزلهم الله تعالى في بساط اليقين وشرفهم بالمقام الأمين، يرتعون في رياض الرضاء والتسليم، ويشربون شراب التسنيم.

وأمّا أهل **المنازلات**، فهم أهل الوجود الذين لا يغيبون عن أبواب الغيب، ويسيرون في أنواره، ويطيرون بأجنحة الهمّة في حقائق أسراراه، وهم من أهل الوقوف على طيب القلوب وتفرس الغيوب.

وأمّا أهل **الدرجات**، فهم مكاشفون بأنوار الملكوت وعجائب السموات والأرض، وهم محجوبون بها عن إدراك كشف جمال الحقّ - عزّ وجلّ.

وأمّا أهل **الحالات**، فهم أهل المحبّة والشوق والعشق، وهم من أهل الوقوف أيضاً على لذة الواردات وحلاوة المناجات وطيب النعمات.

وأمّا أهل **المخاطبات**، فهم محجوبون بلذة الكلام عن أنوار المكاشفة وحقيقتها وعلومها وأسرارها.

وأمّا أهل **المكاشفات**، فهم في تلاطم أمواج بحر الربوبيّة وكشوف أسرار الهويّة، ولا يطيقون أن يدخلوا في أنوار غير المشاهدة.

وأمّا أهل **المشاهدات**، فهم محترقون في أوّل بادي أنوار الصفات، المستغرقون في حلاوة إدراك الجمال والجلال، وهم أيضاً من أهل الوقوف على كشف المشاهدة، ومن قرب القرب محجوبون.

وأمّا أهل **المدانات**، فهم يغيبون في عظمة الحقّ - جلّ سلطانه - ويمحقون في صرف نور جلاله وعزّة ذات السرمديّة وسبحات صفات الأحديّة، والهُون في بيداء الأزليّة، هايمون في قفار الأبديّة، سكارى حيارى، ليس لهم نظر ولا أثر ولا سمع ولا علم. قد غلب عليهم السكر، وهم يسقطون به عن درجة الصحو التي هي مقام الأنبياء - عليهم السلام - والخلفاء اللذين هم أهل الاستقامة الذين ينظرون بعين الحقّ إلى الحقّ، ويتكلمون مع الحقّ بلسان الحقّ، ويسمعون من الحقّ بسمع الحقّ، ويستقيمون في أنوار حقيقة الحقّ بقوّة الحق، ويتمكنون في طلوع شموس التوحيد، وبروز أنوار أقمار التفريد، ويسكنون في كشف قدس القدس، ويقومون بنعت الجمع في مقام أنس الأنس.

وتلك الطائفة التي ذات وصفهم قبل ذلك محجوبون عن هذه القاعدة، ولا يطيقون أن يشموا رائحة مقام أهل الاستقامة لأنّهم سكّان الدار، أعني أهل الاستقامة ندماء الملك. وقال الجنيد - رحمة الله عليه - : «الرجال خمسة: واحد من الخارج يدخل فيمنعه المانعون، فيغدر ويمشي ويرجع من الباب إلا أن يكن عاقلاً يعقل ولا ينظر إليه، وآخر من الداخل يخرج فيمنع من الخارج بغير ما يمنع المانع لأنه مع

المنشور، والرابع يدخل من طريق أصعب وأهول وأشدّ، ولا يكون فيه المانع ولا الغادر بالتشمّر والتجلّد على المخاطرة، فيبلغ ويقدر على الباب، فإن أذن له وإلا ضرح من تحته، فسمع الملك منه ويدخله، فإذا دخل الدار فلا بد من القبول، وهؤلاء أهل التصوف الذين طريقهم على المخاطرة ولا يميلون إلى الخلق ولا إلى الدنيا ولا إلى نفوسهم ولا إلى ميلهم، وإن نظروا ويميلوا فيمنعوا ويحجزوا. والخامس من الدار يقبل، ومن الداخل يَسكُن، وهو نديم الملك، وذلك الحبيب - صلى الله عليه وسلم».

وحكى عن بعض الصوفية قال: «دخلت جامع طرسوس فرأيت جماعة يتكلمون في علم الأصول، وشاب قاعد بقربهم يستمع، وعليه فرو». وقال: «فنظرت إلى الشاب، وهو يمضي من تحت الفرو، وليس تحته أحد، فإذا إنه أقر وهو يحي تحت الفرو، ويريد حتى استوى قاعدًا تحت الفرو، فلما استوى قال: أكنتم أنتم؟ وبعد وراء الحجاب، ولأهل الدار أسرار». قال: «فاحتجب عنا والفرو معه، فلا أدري أين ذهب».

وقال الدقّي: «سمعتُ الدقّاق يقول: «كنت بمكّة في مسجد الحرام عند أبي جعفر الحدّاد، فرأيت شاباً يطوف على الخلق وهو يقول «عندكم خبرٌ، سمعتم خبراً» فقال أبو جعفر: نعم عندي خبر، فسأل الشاب يده فضرب وجه جعفر لطمة، ثمّ قال: «لا والله ما عندك خبر». فدخل في الطواف طوافاً كثيراً بغير عدو، ثمّ وقع في حاشية المطاف، فقمنا فأبصرناه، فإذا هو قد فارق الدنيا» قال الدقّاق: «وأنا ممن صليت عليه». وهؤلاء مع جلالتهم وكمال معرفتهم تاهوا وتحيّروا عند سرادق عظمة جلاله - عزّ اسمه وتعالى - حتى بقي جماعات في حال البحر سنين مثل أبي يزيد البسطامي وذي النون المصري وبهلول المجنون ومعروف الكرخي وسري السقطي وأبو حمزة الصوفي وسمنون المحبّ والشبلي وأبي بكر الدقّاق وأبي الحسين النوري - رحمهم الله - وأمثالهم ونظائرهم من أئمّة المشايخ - قدس الله أرواحهم.

وقيل إن الثوري - رحمة الله عليه - إذا كان في حال التحيّر يقول بادهشة كلمة. وقال ذو النون: «انتهاء عقول العقلاء إلى البحر». وسئل بعضهم عن حقيقة الوصول، قال: «ذهاب العقول». وقال أبو سعيد الخرّاز: «كنتُ واقفاً بحذاء الكعبة أتفكر في آلاء الله ونعمائه على خلقه، قال: فرفعتُ سري لأتفكر في ذاته، فسمعت هاتفاً يقول: «يا أبا سعيد لم يعرف الخلق منه إلا الاسم والصفة».

فإذا كان أمر المعرفة لا يحصل منه إلا التحير، فقد اختار أقوام من العشّاق زيادة التحيّر في جميع أحوالهم حتى أبي يزيد - قدّس الله روحه - قال: «ربّ زدني تحيُّراً» من غاية تلذّذهم فيه. لأنه تعالى له طرق أولها تحيّر، وفيها للعارفين مشاهدات ومكاشفات وحقيقات وأسرار لا يجوز وصفها عند أكثر الخلق لأن في ذلك الخلق صاحت الإشارات، ودهشت العبارات، وفنيت الإرادات، واندرست الرسومات، وكيف تجري العباراتُ على ألسنتهم، والقلوب بنيران أسرار العزّة محترقة، والأرواح في ميادين العظمة دهشة، والعقول في سطوات الصفة مكبّة فانيّة، والعلوم في كمال الربوبيّة مندرسة، والأفهام عن ادراك عظمته خلسة حبسة.

فهذه الأقوام أخرستهم الغيرة، وأسكنهم الطنّة. وإنّهم فصحاء نطقاء، العالمون بأسرار القلوب، الغائبون في أنوار الغيوب، عبدوا اللّه سرّاً وحفظوا السرّ. فهل يمكنون أسرارهم مخبر أم هل بحقائق أحوالهم معبراً. أولئك هم الأتقياء الأخفياء اللذين عرفوا في الناس وهم منكرون ووجدهم هم مفقودون ورائهم، وهم غائبون في بساتين الغيب، وَالِهُون في بيداء السرمديّة، جائرون من باب الحبيب لا يبرحون، وبغير الحبيب لا يفرحون، وإلى لقاء العزيز شائقون، ومن خشية ربّهم مشفقون.

أولئك هم الوارثون، ورثوا نعيم المشاهدة، وهم فيها خالدون تركوا الدنيا لتذهيب الأشباح، وتركوا الآخرة لتقريب الأرواح، مقبلون إلى الله تعالى بطهارة الأسرار، وطائرون إليه بأجنحة الأنوار، بانوا على الخليقة بنعت الفناء وغابوا في الحقيقة بوصف البقاء، هم أمناء الله في العالم، وسادات ذريّة آدم - صلوات الله عليه. بنور الوحدانيّة ينظرون إلى الغيوب وبسناء الفردانيّة يبصرون عجائب القلوب. هم أبطال ميادين العظمة وطيور بساتين المشاهدة - صلوات الله على أرواحهم.

هذه صفات أهل حقيقة التوحيد ونعوت رجال التجريد الذين أخفاهم الله تعالى عن الخلائق وقدس أسرارهم عن العلائق. فسلام الله تعالى وبركاته عليهم حياة وممات. وجعلنا وإياكم من مجالسهم على بساط القربة بين السفرة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - وزمرة الأولياء - رحمة الله عليهم أجمعين - بمنه القديم وجوده العميم. والحمد لله ربّ العالمين حمدًا كثيرًا، وصلى الله على محمّد ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧﴾ [الأحزاب: 46-47].

تمّ كتاب لوامع التوحيد ممّا رسمه الشيخ الإمام العارف العاشق شمس العارفين وقمر الموحدين ترجمان كلام الرحمن أبو محمّد روزبهان.

مسالك التّوحيد

تأليف
الشّيخ أبي محمّد روزبهان البقلي الشّيرازي
المتوفى ٦٠٦هـ

ضبطه وصححه وعلّق عليه
الشّيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيّالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربّ تمم بالخير

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله الذي خصّ عصابة الحقّ بالدين القويم والصراط المستقيم، الذين ميّزهم الله عن الأهواء والبدع والضلال المائل عن المحبّة الأسنى والمنهج الأنمى والشريعة الأعلى، واصطفاهم بسناء اليقين ومنازل الدين والتوحيد المقدّس عن شوائب زيغ الزائفين وغماز خواطر الملحدين، وهداهم إلى سبيل سيّد المرسلين، ووفّقهم للاقتداء بالصحابة والتابعين المكرّمين حتى تمسكوا بحبل القرآن المجيد والسنن وآثار العلماء الراسخين، وغاصوا في بحار المعرفة بمقتضيات العقول والشرع والمنقول وخصائص العلوم، وطلبوا جواهر العقائد المنجية من غمرات الهلاك وهفوات السلاك، وصلى على خير خلقه محمّد وآله وصحبه أجمعين.

[الشروع في الكتاب]

أمّا بعد، فإن الله تعالى تعبّد العباد بكلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمّدٌ رسول الله، ومن قالها ولم يعرف حقيقة الكلمة لم يحيط بأركانها وأقطابها وإشارة الحقّ في أسرارها ولم يكن لشهادته أداء حقها، وهي مع إيجازها تتضمن إثبات ذات الحق تعالى وصفاته وبرهان ربوبيّته وألوهيّته وأزليّته وأبديّته ووحدانيّته في إيجاد فعله وصدق رسوله مع ظهور معجزته. وبهذه القضيّة فتحت على قائل الشهادتين معرفة هذه الأصول التي هي أركان الإيمان مع شعبتها ونظائر العقول بنوا حقائق عقائد الإيمان على أربعة أقطاب، كلّ قطب يشتمل على عشرة أركان.

قطب الأوّل في معرفة ذات الله - تعالى وتقدّس - وهو أنه موجود أزلاً وأبداً وجوداً حقيقياً لا كوجود الأشياء التي هي قائمة بغيرها، بل وجوداً قائماً بنفسه، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، إذ الجوهر محلّ الأعراض، ولا يكون الجوهر إلا متحيراً، ولا قوم العرض إلا بالجوهر. وإنّه تعالى ليس ذاته داخلاً في الأشياء ولا خارجاً عنها ولا حالاً في شيء ولا على شيء. بل هو منزّه عن مناسبة الحدثان. وهو واحد من جميع الوجوه. وهو شيء مرهي لا كالأشياء.

قطب الثاني في معرفة صفاته. ويجب على العاقل معرفتها في ذات الله تعالى. وذلك هو العلم بكونه عالما قادراً سميعاً بصيراً متكلماً حيّاً مريداً. فهذه الصفات في ذاته أزليّة أبديّة، وكذلك جميع الأسماء والنعوت التي وصف بها نفسه. وهو متكلم بكلامه، عالم بعلمه، مريد بإرادته، حيّ بحياته. هذه الصفات زائدة على الذات لا على وجه التعدّد والاجتماع والافتراق. وانقصابها ما لا نهاية له محال ولأن دوران الفلك وإن كانت كثيرة فتعاقب حركاته يدلّ على حدوث الفلك. ودورانه وحركاته لا تخلو عن أن يكون شفعاً أو وتراً، وإن كانت شفعاً فيكون وتراً بنقصان واحد. وكلّ شيء يزيد بشيء آخر وينقص بذهاب شيء كان معه. فهو حادث لطرء العلل عليه. وإذا ثبت حدوثه ثبت افتقاره إلى محدث قديم لا أوّل له. وهذا من مدركات العقول ضرورة. وإذا استحال قدم الحيوانات، وبان افتقارها إلى محدث وموجد وجب العلم باليقين أن ذلك هو الله تعالى لأنه قديم أزلي ليس لوجوده بداية ولا نهاية، وكان قبل

كلّ شيء. وبرهان قدميّته وأزليّته إنه أوجد العالم من العدم بقوّة القدم يحتاج محدثه إلى محدث، ويتسلسل ذلك إلى غير نهايته.

وهذا محال يفضي إلى محدث إذ ينتهي إلى محدث قديم لا أول له. وذلك هو صانع العلم الذي ليس لقدم ذاته وصفاته نهاية. وإذا ثبت قدمه استحال عدمه، يكون باقياً أبداً ليس لبقائه نهاية ولا آخر. وحقيقة برهان ذلك إنّه تعالى لو انعدم لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم مضاد له، ولو كان ممكناً أن ينعدم شيء بنفسه لكان ممكناً أن يتكون بنفسه. وكلّ شيء يحتاج طريان وجوده إلى شيء يحتاج طريان عدمه إلى سبب. ومحال بمعدم مضاد له لأنه لو كان معه مضاد لكان ذلك المضاد قديماً، القديمان لا يكونان لتضادهما في الوجود والإرادة. قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وإن كان المعدم محدثاً فكيف يكون المحدث مضاداً للقديم؟ وإذا ثبت ذلك يتقنا بحقيقة الإتقان، والبرهان أن صانع الأكوان من العرش إلى الثرى واحد قديم، بل هو واحد ذاتاً وصفة.

القطب الثالث في أفعاله تعالى. وافهم أن من العرش إلى الثرى مخلوق الله تعالى، وكلّ شيء سوى وجوده فعله، وهو تعالى أوجده من محض العدم، وكذلك ما يحدث في ملكه إلى الأبد، وأفعال العباد أيضاً مخلوقة لله تعالى، وإن كانت مكتبسة للعباد، وكان في الأزل مريداً بها تفضلاً ورحمة. وله تكليف ما لا يطاق وايلام البريء من العصيان، ولا يجب عليه رعاية الأصلح للعباد ولا يجب شيء إلا بالشرع، وإرسال الرسل جائز منه. ونبوّة الأنبياء - عليهم الصلاة السلام - ثابتة بإرسال الله إياهم، وعلامتها المعجزات الساطعة أنوارها القاطعة شواهدها.

قطب الربع في السمعيات، وهو الإيمان بما جاء في الكتاب والسنّة، وذلك هو الحشر والنشر وعذاب القبر وراحته وسؤال منكر ونكير والصراط والميزان. وأخبر الله تعالى رسوله بأن الجنّة والنار مخلوقتان موجودتان، وبيّن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحكام الإمامة، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى.

القطب الأوّل في معرفة ذات الله

أما القطب الأوّل فجئنا إلى بيان معرفة ذات الله تعالى، وأبين البيان، وأنور الأنوار في توحيد الله - تعالى وتقدّس - سبحانه وصف الله به نفسه وتعرف لعباده في صنائع فعله وآياته المنظومة وأحكامه المترتبة بضياء صفاته في كتابه المبين الذي يرشد العباد إلى معرفة براهينه الواضحة التي تدلّ على وحدانيّة الله تعالى وتقديس ذاته وتنزيه صفاته، وذلك ما قال الله تعالى في خلق السموات والأرض قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ: 6] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، وقال: ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: 47-48]. والآية في هذا أكثر من أن يحصى.

قد امتن على عباده بما أخبر به خلقه في كتابه تعالى، وأرشدهم إلى الاستضاء بضياء كلامه العزيز في أقياس أنوار بيانه ما يقتضى لعقولهم وقدر فهومهم ليعرفوا بذلك صانع العالم بسناء أفعاله وارتصاف منظومات برهانه، لأن الخلق دليل على وجود الخالق، والفعل يدلّ على الفاعل، والمقدور على القادر لأن من تفكر في خلق السموات والأرض والجبال والبحار، وتأمل بأدنى تأمل فكرة رأى عجائب الله تبارك وتعالى في موجوداته، ومن رأى هذا النظم الغريب علم وعرف أن لا يتكون الكون إلا بمكوّن، ويعلم بصفا عقله أن العالم لا يكون بطبعه. بل يحتاج إلى صانع مدبّر عالم حكيم قادر، قدرته واسعة من العرش إلى الثرى.

وجبل الله في طباع النفوس فطرة نورانيّة عقلية قدسيّة تشهد لمكونها، وتعرف أنّها مقهورة تحت تسخير صانعها ومقدورة تحت تدبير خالقها. وهي قابلة لتعريف الله تعالى إياها بأنوار فعله وضياء مصنوعاته الذي يرشدها إلى طريق إثبات ذات الله تعالى الموجود القديم الذي صدر منه الأشياء. ولذلك قال الله - تعالى وتقدّس -: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [ابراهيم: 10]. وتلك الفطرة صارت سليمة لقبول الدين، منقادة لأمر صانعها. وذلك حقيقة الدين الذي فطر الخلائق عليه، كما قال الله تعالى - جلّ جلاله - في كتابه المبين: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

وهذا كان مجبولاً في ذراري آدم - عليه السلام - في بدو الوجود. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]. وكذا في أوّل نشوئهم حيث كلفهم معرفته، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]. وفي عنوان شبابهم في رسوخ تلك الفطرة في نفوسهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]. وقال النبيّ - صلى الله وسلم -: «كلّ مولود يولد على الفطرة إلا أن أبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعا»[1].

فعلمنا من بيان القرآن والحديث أنّ في فطرة الإنسان ما يستغني في معرفة الصانع القديم الباقي عن إثبات الحجة العقليّة وإقامة البراهين العلميّة. لكن نحن نسلك مسالك النظار من العلماء الراسخين الذين تطرقوا على طرق المعارف لطلب معرفة الصانع - جلّ اسمه - معرفة كاملة عقليّة قاطعة كلّ مغالطة تدور على حواشي خواطر المبتدعة لأن العلم إذا كان معه برهان عقليّ يقبل كلّ عاقل له ضياء ونور، وذلك ممّا لا يخالفه العقل.

فإنّ في العقل لبّاً خالصاً يعرف أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن محدث منزّه عن طريان علل الحدوثيّة عليه. وعند العقل معلوم أن كلّ حادث لا يستغني في كونه حادثاً عن سبب، وذلك السبب فعل فاعل وقدرة قادر وصنع صانع وعلم عالم وحكمة حاكم وإرادة مريد، وذلك المريد القادر الصانع الله تعالى.

وكما أن البناء لا يستغنى في كونه عن بنّاء، فكذلك العالم لا يستغني عن صانع واحد ليس له شريك في ملكه ولا نظير في أمره، لأنّ كلّ حادث مختص بزمان، وجاز في العقل تقدّمه وتأخّره. واختصاص ذلك الحدث بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر ضرورة إلى مخصّص قديم أزلي. ولو كان للحدث اختيار لجاز أن يحدث في وقت مراده. والعالم حادث، فلو كان حدوثه طبعًا يكون معه[2] في الأزل. وهذا محال لأنّ الحادث والقديم لا يجتمعان في زمان. بل هو تعالى منزّه

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، في أبواب عدة منها باب إذا أسلم الصبي. . .، حديث رقم (1292) [1/ 456] ورواه مسلم في بابين: أحدهما: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. . .، حديث رقم (2658) [4/ 2047] ورواه غيرهما.

(2) هذا الحديث سبق تخريجه.

عن أن يكون معه شيء في أزليّته، ولذلك قال النبيّ - صلى الله عليه وسلم -: «كان الله ولم يكن معه شيء»[1].

وقد ذكرنا أنّ العالم حادث، وبيانه أنّ وجود العالم وأجسامه محلّ التغير والزيادة والنقصان. وما وقع في محلّ هذه العلل صار محلّ طرو الحوادث. وما كان محلّ الحوادث، فهو أيضاً حادث لأنّ أجسام الأكوان لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان. وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. وما ذكرناه مدرك بالبديهة حسّاً وعياناً واضطراراً. ولا يحتاج في ذلك إلى تأمل أو فكر. ويدلّ على ذلك اتصال بعض أجزائها ببعض، وكون بعضها بعد البعض. وفي محض تعاقبها وتعاقب الأشياء دليل على حدوثها لأن ذلك موجب للحركة السكون وهما موجودان في أجسام العالم مشاهدة، لأن بعد كلّ سكون حركة، وبعد كلّ حركة سكون من حيث قضية العقل. والعقل يقتضي بأنّ طريان الحركة حادث وطريان السكون زال بالحركة والحركة زالت بالسكون.

فطريان المسبوق حادث. فطريان السابق حادث لزوال ثبوته، ومن زيادة البيان في حدوث العالم لأنّ الحادث لا يخلو من الحوادث، وما لا يخلو من الحوادث حادث. ولو فرضت قبل كلّ حادث حادث لقضيت بتسلسل الحوادث التي لا أوّل لها حيث نزه نفسه عن إشارة الزائفين المبطلين بقوله - سبحانه -: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الصافات: 180]. وإذا وصفنا الله - سبحانه وتعالى - جلّ إسمه بأنّه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ثبت تنزيه ذاته عن الاختصاص بالجهات، فكيف صار محدوداً؟

فطريان الجهات عليه حدث، وكان في الأزل بلا جهة، فالآن كما كان. ومن أحاط به الجهات صار محاطاً محدوداً، والمحدود ليس بخالق الخلق. وإنّ الله تعالى كان قديماً، والجهات حادثة، ولم يكن معه جهاتٌ في الأزل، فإلى الأبد لا يكون هو في الجهات. وكيف يحتاج القديم الأزلي إلى شيء مخلوق؟ ولو كان في الأزل في الجهات، فتلك الجهات كانت قديمة. وقد نفينا بالحجّة والبرهان معيّة المخلوق خالقه - عزّ جلال ذاته تعالى - حيث بيّنّا أنّ التحيّز والجهات من سمة الجسم والجوهر والعرض. ولأنّ العقل يفرض أن المختص بالجهة يكون مختصاً بالحيز

---

(1) أي [الصانع].

اختصاص الجوهر، والجواهر مختصة بطريان الأعراض، وبيان استحالة كون ذات الأزلي جوهرًا استحالة كونه مختصًا بالجهة.

وإشارة العبد في الدعاء إلى السماء إشارة إلى علّو جلاله واستيلاء قهره على كلّ ذرّة من العرش إلى الثرى مع أنّ جميع الأكوان بالإضافة إلى عزّته أقلّ من ذرّة. ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «الكون في يمين الرحمن أقلّ من خردلة»[1]، ومن ظنّ أن العالم يجب وجوده نسبه إلى مجازاة الأجسام، وفوقية تسخير للمخلوقات تحت أمره وسلطانه. وهذا معنى قوله في وصف جلاله وعظمته وصولة قهره من العرش إلى الثرى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]. فهو مستوي على عرشه بمعنى مراده.

وذلك ما يليق بعزّة ذاته وجلال صفاته، ولا ينافي وصف ذاته وعلوّ صفاته، ولا يفضي إلى نعت الخليقة وسمات الحدث. وما ظهر لي في معنى الاستواء ظهور تجلي ذاته وصفاته تعالى وإحاطة قدسه على كل شيء، وتعالى جلال ذاته عن مماسة المخلوقات، ومع تقدّس ذاته وتنزيه صفاته عن التشبيه بالأشكال والأمثال والأشخاص والخيال فهو مرئي الذات بالأبصار الظاهرة يوم القيامة. كما قال﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: 22-23]. ولا يرى في الدنيا بالأعيان الظاهرة لقوله تعالى﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[الأنعام: 103].

ولكن لم يكن مستحيلاً، بل جائز الرؤية بالعين الظاهرة. والدليل على ذلك سؤال موسى - عليه السلام - رؤية الحقّ - جلّ سلطانه - حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: 143]. ومحال أن يكون النبي المكلم المختار بالرسالة والكتاب سأل شيئاً مستحيلاً، ونسبة الجهل إليه كفر. وكما إنّه تعالى معلوم بلا كيف، فكذلك مرئي بلا كيف، وليس هو في محاذات الخلق مع تصديق رؤيته، ويجوز رؤية الحقّ تعالى - عزّ سلطانه - في المنام وفي اليقظة بالقلب لقول النبي - صلى الله عليه والسلام -: «من رأى الله تعالى في منامه لم يعذّبه بالنار»[2] وقال - عليه الصلاة والسلام -: «جوّعوا بطونكم واعطشوا أكبادكم تروا الله بقلوبكم»[3]. ويمكن ذلك في الحال والوجد والسكر والصحو. ثمّ دلائل معرفة ذاته، فنشرع في معرفة الصفات.

---

(1) (2) (3) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

القطب الثاني في معرفة الصفات

وافهم أنّ خالق الخلق وصانع العالم قادر، وقد وصف نفسه **بالقدرة** القائمة الأزليّة كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: 120]. وترى العالم محكماً مصنوعاً مزيّناً، ولا يتأتى هذه المخترعات البسطة الكاملة الجامعة إلا من مصادر قدرة حكيم قادر ذي العزّة المتبين قدرته قائمة بذاته القديم، وهي صفة ذاتيّة أزليّة. وكما لو ترى نسجاً منقّشاً مصوراً مطرزاً تعلم أن ذلك لا يكون إلا من نسّاج كامل القدرة في نسجه، فكذلك تعلم عقلاً بأنّ مصنوعات العالم لا تكون إلا من صانع صنعه بلا علّة. ومن لا يعرف ذلك فهو جاهل جاف مختل العقل لأن من كان له عقل يعرف أن العالم لا يكون بطبعه، وهذه المصنوعات المركبة لا تتأتى إلا من كامل القدرة، وهو الله تعالى - عزّ سلطانه.

ومن صفاته **العلم**، وهو عالم بجميع المعلومات محيط بكلّ الموجودات، لا تغيب عنه ذرّات الحدثان من العرش إلى الثرى، كما قال الله تعالى - جلّ جلاله - في كتابه المبين وفرقانه القديم: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[سبا: 3]. وقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: 120] وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنعام: 101]. وشاهد وجود علم الله - تعالى وتقدّس - في نفسه صنائع الكاملة المزيّنة والمرتبة المصورة التي هي مرشدة إلى لطائف علمه وغرائب فعله في جميع المخلوقات. كما قال تعالى - جلّ جلاله - في كلامه المجيد: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. ومن لطيف صنعه وعلمه هذا الترتيب العجيب والترصيف الغريب.

ومن صفاته **الحياة**، وهو حيّ لا يموت لأنّ حياته أزليّة، والأزليّة غير منقطعة أبداً، وهي قائمة بذاته وهو حيّ بحياته. وإذا ثبت بالبيان الشافي علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته. فكيف يتصور قادر عالم خالق فاعل من غير أن يكون حيّاً؟ وهذه الصفات لا تكون إلا وصف حيّ. فحياته تظهر في فعله لأن الأفعال لا تتأتى من ميّت،

والله تعالى **مريد** لأفعاله، وجميع الموجودات مستندة بالحقيقة إلى مشيئته

الأزليّة، ومصادر أفعاله إرادته القديمة كما قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 16]، وهو مريد لما صدر منه في الأزل حقيقة، فكلّ فعل صدر منه في «الأزل» يصدر من إرادته ضدّه، ويصدر منه بعينه قبله أو بعده. فالإرادة منه تخصيص مراد شيء من غيره، ولا بدّ من إرادة سابقة في الأزل في تقدير أحد المقدورين وترجيح أحد الضدين، وقدرته وإرادته سابقان في إحداث فعل مختص. ولو جاز في إحداث الفعل أن يغني عن الإرادة لوجود سبق العلم لجاز أن يغني عن القدرة لسبق القدرة. ومعلوم حقيقة أن الله تعالى سميع بصير لا يغيب عن نظره وبصره.

هواجس الضماير وخفيات الأوهام وأفكار الخواطر، سميع أصوات دبيبة النمل السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء والعمى والصمم حيث وقعا على إنسان صار ناقصاً. فإذا كان في الإنسان عيباً فكيف يكون في خالق السمع والبصر شيء لا يليق بإنسان مخلوق مع أنّه تعالى منزّه في سمعه وبصره عن مشابهة الخليقة التي تحجب سمعها وبصرها حواجب الأجساد وغبار الهواء. وهو تعالى يرى من العرش إلى الثرى ويسمع ما يخطر في الضمائر. ولا يحجب سمعه ورؤيته كثافة الحدثان وعلل الطوارق لأنّ سمعه مقدس عن الخروق وصد الأصوات التي يدخل في الصماخ. وبصره أعزّ من أن يحجبه علل المخلوقات لأنه منزّه عن الحاسة وطبقات البصيرة.

وهو تعالى **متكلم** بكلامه الذي هو وصف قائم بذاته. لا يشبه كلامه بكلام الخلق كما لا يشبه وجوده بوجود الخلق، كما قال - جلّ جلاله- في كلامه المجيد القديم﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء: 164] وكلامه النفسي إذا صدر منه وتكلم فيه فهو كلامه حقيقة. وإذا يتكلم به يسمى بالمجاز كلامًا، وكيف سمع موسى - عليه الصلاة - كلاماً في نفسه وهو يتكلم به؟ بل سمع من الله تعالى كلاماً صدر منه وعرف معناه وطاب به واشتاق إلى الله تعالى - عزّ سلطانه - وإلى رؤيته بتلذذ كلامه. وكلامه منزّه عن مشابهة أصوات المخلوقات من جميع الوجوه، والتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وجميع كتب الله تعالى كلامه، تكلم بها كما جاء من الأنبياء.

وقوله ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: 1] كلامه. وهكذا تكلّم الحقّ تعالى به، وهو قادر على ذلك مع تنزيهه وتقديس كلامه عن مشابهة كلام

المخلوقين. وفي الحديث المروي: «إنّ الله تعالى قرأ طه ويس قبل خلق السموات والأرض وسمع الملائكة قراءته»[1] وكذا في الحديث: «إنّ الله تعالى يقرأ طه ويس يوم القيامة»[2]. وكلامه قديم أزلي مقروء بألسنتنا ومحفوظ في صدورنا ومكتوب في مصاحفنا، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - «القرآن كلام الله طرف بيده وطرف بأيديكم فتمسكوا به لن تضلوا»[3]، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «ما بين الدفتين كلام الله تعالى»[4]، وكما أنه تعالى قديم كلامه أزلي لأنه منزّه عن أن يكون محلاً للحوادث، ولا يغيّر به تغيرات المخلوقين، ولا يزال في أبديّته كذلك. ومن تكلم بشيء في كلام الله تعالى بغير ما ذكرنا فهو يسير إلى مذهب المعتزلة.

وقد ذكرنا أن جميع صفات الله تعالى - جلّ اسمه - قائمة بذاته أزلاً وأبداً، عالم بذاته وبما يحدث من المخلوقات، وكذا إرادته قائمة بذاته، وهي في القدم تعلقت بإحداث خليقة في أوقاتها إرادة لله تعالى يحدث في أوقاتها على وفق سبق علم الله تعالى الأزلي. ولو كانت الإرادة حادثة لصار محلا للحوادث، ولو حدث في غير نفسه لم يكن هو مريداً. ولو جاز أن يحدث إرادة في نفسه بغير إرادة قديمة لجاز أن يحدث العالم بغير مراده. وهو عالم بعلم حيّ بحياة قادر بقدرة مريد بإرادة متكلم بكلام سميع بسمع بصير ببصر، لا تشبه صفاته صفات الخلق، ولا تنفك هذه الصفات القديمة عن ذاته.

ومن قال: هو عالم بلا علم قد غلب عليه دخان الجهالة ونيران الحماقة. ولو كان كما قال لجاز أن يكون زيد غني بلا مال وعالم بلا علم. وكان الله - تعالى وتقدس - عالماً في الأزل ولا وجود للمعلومات، وكان سميعاً قبل المسموعات، وبصيراً قبل المبصرات، وقادراً قبل المقدورات، وخالقاً قبل المخلوقات. تمت دلائل معرفة صفاته، فنشرع في معرفة أفعاله - عزّ سلطانه.

---

(1) رواه الدارمي في سننه، باب في فضل سورة طه ويس، حديث رقم (3414) [2/ 547] ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عبدوس، حديث رقم (4875) [5/ 133] ورواه غيرهما.

(2) انظر الهامش السابق.

(3) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

(4) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع.

القطب الثالث في أفعال الله - تعالى -

وهو متفرد بإحداث العالم، وفعل عباده مخترع لله تعالى كما قال في كلامه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: 96]. وقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: 102]. وهو تعالى متوحد باختراع حركات الخلق والخليقة، وهي مقدورة لله تعالى. وإن كان للعباد فيها مدخل للاكتساب. وفعل العباد مقدور بين العباد، والقادر المتفرد الذي قدرته قديمة قائمة بذاته، والعبد القادر يكسب، وقدرته مقدور الله تعالى. فنسبة القدرة القديمة إلى ذات الله - تعالى وتقدّس - ونسبة الكسب والقدرة المقدورة إلى العبد وجميع ما يحصل من العبد فعل وكسب، ولا يخرج عن كونه مراد الله تعالى. وهو ما يجري في الملك والملكوت من فوق العرش إلى قرار الثرى. وهو مشيئة الله تعالى وإرادته وجميع حركات المخلوقات قاضية بقضائه جارية بقدرته إمّا شراً وإمّا خيراً وإمّا نفعاً وإمّا ضراً وإمّا كفراً وإمّا إسلاماً وإمّا طاعة وإمّا معصية لا راد لقضائه، ولا مانع لحكمه. ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: 93]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: 23]. وإن سأل سائل كيف ينهى عمّا يريد ويأمر بما لا يريد، فنقول الأمر غير الإرادة، وإنّما الأمر لابتلاء العباد كما قال الله تعالى - جلّ جلاله - في كلامه القديم: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]. وهو متصرّف في ملكه كما يشاء أراد بالعبد شرّاً ونهاه عنه.

وإرادته سابقة على الأمر والنهي كما قال في كتابه القديم: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: 21] لأنّ الأمر وارد على الإرادة، والإرادة سابقة على الأمر والنهي، لأنّ الأمر والنهي لاظهار الربوبيّة والسلطنة على جميع الموجودات. وأمر بما لا يريد وجرى في المشيئة الأزليّة ذلك، وعرّف العباد عجزهم حتى عرفوا نعوت العجز وسمات العبوديّة في أنفسهم حيث لا يقدرون دفع أمر الله تعالى عنهم، ولا يقدرون كسب ما لا يريد. وهذا محض التفضّل على عباده حيث أعلمهم قهر سلطانه واستيلاء جبروته وجريان ملكوته الذي لا يقدر الخلق أن يخرجوا من تحت قضائه وقدره وقدرته وتدبيره.

وافهم أنّ قدرة الله تعالى لها تعلّق بكلّ المقدور في الأزل. وإن لم يكن

المقدور وقدرة العباد وهي صفة العباد، وأيضاً هي مقدورة الله. وإنّه تعالى يخلق قدرته لحظة فلحظة في العبد. وتلك القدرة ليست بكسب العبد، وحركة العبد في الكسب أيضاً خلق الله تعالى. ولو كانت حركة العبد بكسب العبد وكانت خارجة من قدرة الله تعالى لكان قادرا على دفع حركة الرعدة الضروريّة في يده. ولو كانت الحركة مقدورة للعبد لإحاطة بعلمه بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة واعدادها.

فلمّا ثبت هذا البيان علمنا أيضاً مقدور الله تعالى اختراعاً. وأنّ قدرة الله تعالى متعلقة بالمقدورات في الأزل، وليست مخصوصة بحصول المقدور في وقته. وإنّه تعالى متفضّل على الخلق بالخلق والاختراع، منعم على العباد بتكليفهم العبوديّة. ولم يكن التكليف والخلق واجباً على الله تعالى خلافاً للمعتزلة. فإنّهم قالوا أنه واجب على الله الخلق والتكليف لما فيه من مصلحة العباد. وهذا محض المحال لأنّ الله تعالى موجب الأمر لا يجب عليه شيء لأن من وجب عليه شيء فموجب ذلك الواجب عليه أعظم منه. وهو تعالى واحد ليس له ضدّ ولا ندّ ولا شريك في ملكه. وهو تعالى يفعل ويأمر وينهى باختياره ومراده. وهو غالب على أمره. وهو بذاته تعالى مقدّس من خوف عاقبة الأمور لأنّه فعل بمراده الأزلي وعلمه الأزلي قبل وجود المخلوقات. وهو متصرّف في ملكه، كما يشاء. امتحن العباد بالخير والشرّ، وابتلاهم بالأمر والنهي، ودعاهم إلى طاعته. ولو وجب عليه مصلحة العباد ولم يكن متصرّفاً في ملكه كما يشاء.

ومن الجائز على الله تعالى أن يكلّف عباده بما لا يطيقونه خلافاً للمعتزلة، لأنّ الله تعالى ذكر في كتابه سؤال عباده حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[البقرة: 286]. ولو لم يجز التكليف بما لا يطاق لاستحال سؤالهم دفع ما لا يطاق. وإنّ الله تعالى علمنا بعلمه الأزلي أنّ فرعون في الأزل كان كافراً، وأمر موسى - عليه السلام - أن يدعوه إلى الله - تعالى وتقدّس - وهو كان عالماً بأنه لا يؤمن به أبداً لأنّ الإيمان يتعلّق بمراد الله - تعالى وتقدّس . وقد أخبر الله تعالى نبيّه - عليه الصلاة والسلام - بأن أبا جهل لا يصدقه، ثمّ أمره أن يصدّقه وعلم بأن لا يصدّقه. وهذا محض تكليف ما لا يطاق.

ولله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سبق منهم خلافاً للمعتزلة. ولا يوصف الحق تعالى - جلّ جلاله - بالظلم لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه،

وهو حكيم عدل لطيف، والظلم تصرّف الباطل في ملك الغير، والملك والمملكة لله - سبحانه وتعالى - فلا يكون تصرّفه في ملكه ظلماً. وبيان ذلك أنه أمر بذبح البهائم. وذلك ايلام لها. ولم يتقدم منها جريمة من حيث أنّ ذبحها منفعة لعباده، وعلم تعالى أنّ حكمته في ذلك أنّه يؤول إلى أنّ البهائم إذا أكلها الإنسان خرجت عن رتبة البهائم إلى رتبة الإنسان والإنسان أشرف الخلائق. وقد ذكرنا أنّ الله تعالى يفعل بعباده ما يشاء. ولا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لأنّ عباده ملكه ومملكته متصرّف في ملكه كما يشاء.

وقالت المعتزلة وجب عليه رعاية الأصلح لأنه منهما قدر عليه، ثمّ سلط عليهم العذاب لا يليق بعدله وحكمته. ونحن نقول إنّ حفظ رعاية الأصلح لا يكون إلا لطمع ثواب أو ثناء أو لخوف سوء العذاب بايجاب الله تعالى، وهو منزّه عن مثل ذلك كما قال في كلامه المجيد: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: 15].

وافهم أنّ معرفة الله تعالى وطاعته واجبة على العباد بايجاب الله تعالى وشرعه بخلاف المعتزلة، لأنّهم قالوا هي واجبة بالعقل، وهذا محال، لأنّ العقل لا يعرف حقيقة مراد الله تعالى، لأنّ الله تعالى لو عاقب العباد بالطاعة والمعرفة كما عاقبهم بالمعصيّة والجهل، لجاز منه لأنه متصرّف في ملكه متفرّد في سلطانه، ولأنّ العقل لو أوجب الطاعة والمعرفة لا يخلو ذلك من أمرين، إمّا أن يكون لفائدة أو لغير فائدة. فإن كان لغير فائدة فذلك محال وإن كان لفائدة فلا يخلو تلك الفائدة من أن ترجع إلى الله تعالى، وهو محال إذ هو منزّه عن الاحتياج وجرّ المنفعة، أو أن ترجع إلى غرض العارف المطيع، وهذا أيضاً محال لأنّه لا يترك راحة في النقد لطمع راحة في النسبة مع جهله بالعواقب لأنّ المشيئة لله وحده، ولا يعرف كيفيتها العقل.

وبعثة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ليست بمستحيلة خلافاً للبراهمة، لأنّهم قالوا أنّ في العقل لمندوحة عنهم، وهذا محال لأنّ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أتوا من الله تعالى بالشرائع المختلفة في الأوامر والنواهي والتحكمات التي لا يعرف العقل حقيقتها. وإنّما يعرفها الأنبياء. ألا ترى في رمي الجمار أنّه ليس للعقل فيها مجالاً، ومثل ذلك كثير. ومثال العاقل كالصبي المنهوم المحموم الذي له اشتهاء التمر. ومثال النبي والرسول مثال الطبيب الحاذق الذي يعرف مضرة التمر في نفسه فيزجره عن أكله، ولأنّ العقل لا يعرف أنّ صلاة المغرب لأيّ شيء يكون

ثلاث ركعات وصلاة العصر أربع ركعات، ولو كان العقل شارعاً يعرف أحكام الإلهيّة بحقائقها.

فإذا جاء الرسول وثبتت معجزته وجب على العاقل اتباعه. ومعجزة نبيّنا عليه الصلاة والسلام صحت عند جميع المؤمنين في الآفاق بالتواتر مثل انشقاق القمر تسبح الحصى وانطاق العجماء ونبع الماء من أصابعه. وأبين معجزاته القرآن الذي عجزت جميع العرب عن الإتيان بمثله والمعارضة له مع فصاحتهم وبلاغتهم. ومن معجزاته انباؤه عن الغيب ليستقبل كقوله تعالى - جلّ جلاله - في الكتاب: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [الفتح: 27]. وبقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: 1-2]. وأمثال هذه المعجزات التي أخبر بها - عليه الصلاة والسلام - بوقوعها إلى يوم القيامة، فإذا ظهر منه شيء عجز عنه البشر لا يكون ذلك إلا فعل الله - تعالى وتقدّس. وما دامت تلك المعجزة مقرونة بتحدي النبي صار بمنزلة قول الله تعالى حيث أخبره عن صدقه في كتابه في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29].

والمعجزة جعل الله تعالى، والقرآن كلام الله تعالى، وهما ظهرا عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم - بإحسان البيان. ففعل الله تعالى مصدّقه وكذا كلامه. وإذا صحّت بذلك نبوّته، وثبت العلم عند الخلق بذلك، وصار ضرورياً عند سامعيه. ونبيّنا - عليه الصلاة والسلام - خاتم الأنبياء، وشريعته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

القطب الرابع في السمعيات

وتصديق النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبر عنه مثل الحشر والنشر وذلك حقّ. وتصديقه واجب لإمكانه في العقل، ومعناه إعادة الخلق بعد إفنائهم. وذلك مقدور لله تعالى كإنشائهم في الابتداء، كما قال الله تعالى في كلامه القديم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78]. والإعادة ابتداء ثان ونشأة ثانية، والله تعالى قادر عليها. وذلك ممكن كإيجادهم في أوّل إنشاء الفطرة. وقد أخبر عن عذاب القبر كما قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46].

وقد استعاذ النبيّ - عليه الصلاة والسلام - والصحابة من **عذاب القبر**. وهو ممكن في العقل واجب تصديقه، ولا فرق بين القبر وبطون السباع وحواصل الطيور عند الله تعالى لأنّه قادر على إيلامهم وإعادتهم عنها. وقد ورد الشرع بسؤال منكر ونكير. وذلك حقّ واجب تصديقه لأنّه ممكن في العقل لأنّ الله تعالى قادر باحياء الميّت في القبر كما هو قادر بإيجادهم في الأوّل. والسؤال في القبر وإن لم تسمعه فهو ممكن لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - كان يسمع كلام جبريل - عليه السلام - وهو يشاهده. ولم يسمع من الصحابة أحد صوته وكلامه، وهم مؤمنون بما أخبرهم النبيّ - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم - من كلام جبريل - عليه السلام - لأنّ صدقه كان بيّنا عندهم بظهور المعجزة. ونحن نؤمن بذلك وتصديقاً وتسليماً.

والميزان حقّ كما قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47] إلى قوله ﴿حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]. والله تعالى يثقل صحائف الأعمال ويحدث فيها وزناً بحسب درجات الأعمال عنده بحيث يظهر مقادير أعمالهم بموازين العدل. ويعرفهم مجازاة العصيان بالعقاب وفضله عفوه وعقابه في مقابلة مقدار أعمالهم.

والصراط حقّ. وهو جسر ممدود على ظهر جهنّم وهو أدق من الشعرة وأحدّ من السيف كما قال الله تعالى في كتابه القديم: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23]، وتصديقه واجب لأنّه ممكن في العقل لأنّ الله تعالى - جلّ جلاله - إذا كان قادرا على أن يمسك الأطيار في الهواء، ويطير بها وهو قادر أيضاً على أن يسير العباد على الصراط.

والجنّة والنار مخلوقتان كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران: 133] فالمغفرة هي الجنّة. وقال أيضاً: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: 133]. فالآية دليل على أنّها مخلوقة، والإيمان بها واجب إذ لا استحالة فيه. ولأنّ الجنّة مأوى الأرواح المؤمنة الصادقة، والنار مثوى الأرواح الكافرة. وفوائد الجنّة في العالم قد ظهرت لأنّ نسيمها يجد أولياء الله تعالى، وقد بيّن في الحديث: «ألا إن لربكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن»[1]. وقد أخبر النبيّ - عليه الصلاة والسلام - في صلاة الاستسقاء إنّه رأى الجنّة والنار وقال: «كدت أن آخذ عنقوداً من عناقيد الجنّة»[2] والحديث معروف.

وافهم أنّ إمام الخلق بعد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم - أبو بكر الصديق وكان خلافته بالإجماع، ثمّ عمر بن الخطاب وكان وَصِيَّ أبي بكر، ثمّ عثمان، ثمّ علي - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وما نصّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على إمام أصلاً إذ لو نصّ لكان ما نصّ عليه أولى بالخلافة من غيره، ولو صدر نصّ على ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستنزه ذلك على الصحابة - رضي الله عنهم. وإن كان فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا؟ واعتقاد أهل السنّة والجماعة على فضائل الصحابة - رضي الله عنهم - وعلى ترتيب خلافتهم. وحقيقة الفضل ما هو فضل عند الله تعالى وعند رسوله. وقد ورد الثناء عليهم في أخبار كثيرة.

وهم الشاهدون للوحي والتنزيل وقد عرفوا فضائل الأربعة بقرائن الأحوال وما أدركوه بإشارة النبي - صلى الله عليه وسلم - في فضلهم. فعلى ذلك رتّبوا أمر الخلافة. وهم أهل الصدق والعدل. وهم لا يخافون لومة لائم وما جرى بين الصحابة وعليّ ومعاوية - رضي الله عنهم - مبني على الاجتهاد، ولا منازعة من معاويّة في إمامة عليّ. وقد علم أنّه لو طلب القصاص من قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعساكر لأدّى ذلك إلى اضطراب أمر الأمّة في ابتدائها. فرأى تأخير طلب القصاص أصوب، ثم طلب بعد استقامة أمر الأمة ورسوخ الخلافة، وطلب معاويّة القصاص على ظنّ الصواب. وقال في ذلك كبار العلماء: «كلّ مجتهد

(1) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (708) [1/ 269].

(2) هذا الأثر لم أجده بلفظه فيما لدي من مصادر ومراجع حديثية.

مصيب» وقيل: «المصيب واحد. ومع ذلك لا يتوجّه الخطأ على المجتهد بعد بذل خاطره في طلب الإصابة بالاجتهاد البليغ».

وعلى الاتفاق الحقّ مع عليّ، والصواب ما كان عليه لقول النبيّ - صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: «الحقّ مع عليّ حيث دار»[1]

ومن جملة أحكام عقائد الدين شرائط الإمامة، وشرائطها بعد الإسلام والبلوغ خمسة: الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسب قريش لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «الأئمّة من قريش»[2] فإن حصل عدد وفيهم هذه الصفات التي ذكرناها، ولكلّ واحد منهم استحقاق الإمامة لما فيه من الشرائط الخمسة المذكورة. فالإمام من انعقد له بيعة المسلمين، ويكون أكثر الخلق معه في البيعة. فمن خالف الأكثر فهو باغ يجب صرفه إلى الطاعة والانقياد. ولمن انعقد له البيعة ولزمه اتباع الحقّ بعد ظهور السلطنة والاجتماع.

فمن تعذر فيمن له نسب قريش وجود العلم والورع ويكون في غيره ظهور فتنة وإمارة أهل الجاهليّة يحكم بالانقياد لمن لا فتنة في إمامته لما فيه من مصلحة الأمّة وخلوصهم من الشرّ والفساد لأنّا لا نأمن أن نطلب مزيّة الشروط فيه أن يكون في إمامته هدم الإسلام لأنّ من فيه نقصان بعض الشروط مع مصلحة الأمّة أفضل لاستقامة الدين والمسلمين من الذي فيه الشرائط مع هدم الإسلام، وقضاء أهل البغي نافذ لوقوع الحاجة والضرورة.

انتهى بيان الأقطاب الأربعة التي ذكرناها على الشرائط من السنّة والجماعة. فمن اعتقدها فهو ممّن هدى إلى صراط مستقيم. ومن جحدها فهو ممّن ألقي في سواء الجحيم، أعاننا الله تعالى وإيّاكم من البدعة والضلالة والأهواء المختلفة. ووفقنا للسداد والرشاد وحسن العافية ومتابعة سيّد المرسلين وإمام المتّقين ورسول ربّ العالمين محمّد - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين - والحمد لله ربّ العالمين.

---

(1) روى نحوه الحاكم في المستدرك، ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. . ، حديث رقم (4629) [3/ 134] ونصه: «رحم الله عليًا اللهم أدر الحق معه حيث دار». وروى نحوه الترمذي في سننه، باب مناقب علي. . ، حديث رقم (4629) [3/ 134] وروى نحوه غيرهما.

(2) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر فضائل القبائل، حديث رقم (6962) [4/ 85] وروى نحوه غيرهما.